

الكتاب الاول

١٩٤٨

في العالم ظلمة ينعمون بالجمال والسود
وفيه مظلومون يشقون ليل نهار
وأود أن أكون من الآخرين

يناير ١٩٤٨

تمهيد

ضيق عليّ الإدارة الخناق في عام ١٩٣١ فرصدت أمام داري الجواسيس ليل نهار . وكنت أسكن في ذلك الوقت في حارة ضيقة في حي « السكا كيني » ، فأثارت هذه المرافقة شكوك الجيران وشبهه البوابين . فأخذوا ينظرون إليّ شزرا ، ويتهايمسون فيما بينهم كلما وقع نظرهم عليّ . فصبرت على هذا الشرطويلا . وقلت في نفسي شر سيزول متى تحقق الرؤساء ظلم هذه الرقابة ، ولكنهم حسبوا صبري عليها تحديا لهم . وبدل أن يسحبوها أو يخففوها من شدتها تهادوا فيها إلى حد بعيد . أرسلوا ورأي غلانا تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين يلزمون خطواتي لزوم الظل ، لا يتعففون عن الركوب وراء العربات ، والقفز في الترموايات من ناحية الشمال ، ومطاردة السيارات على العجلات ، وآخرين لمشاركتي في المائدة التي أجلس عليها في مشارب القهوات يرهفون آذانهم بشكل ملحوظ لما يدور بيني وبين جلّاسي بدون أن يشتركوا في الحديث ، ثم يتظاهرون بتقيد بعض الملاحظات في كمناشاتهم ، فضج أصحابي ومعارفي من هذه الحال ، وابتدأوا ينسحبون من حوالى واحد بعد الآخر . وتعذر عليّ العمل في جريدة أو مكتب ، وأوشكت البقية الباقية من رأسمالي الذي كنت أنفق منه مهندسين بدون استثمار على النفاد .

أسقط في يدي ولم أدر لي مخرجا من ورطتي ، وتملكني الأرق ليله ولم يغف لي فيها طرف . فأخذت أقلب الأمور على جوانبها ، فتحققت اني هالك قريبا لا محالة . ولم تطمئن نفسي للتسليم ، وعددته مجبنة لا تتفق وطبيعتي ، وقلت ان الوزارات عندنا - في ذلك الوقت - لا تعمر كثيرا . فماذا يمنع من مغادرة

مهصر إلى بلد آخر من بلاد الله حتى تستبدل الاقدار ناسا بناس ؟؟ ولستكني
شعرت بشيء من الغمضاضة وخفت أن يجد هذا فرارا من الميدان . فذهبت من
فراشي وجلست إلى مكنتي وكتبت بضعة كتب إلى من أثق برأيهم من الأصدقاء
أسألم المشورة ، ولم يغب عليّ ردهم إلا مدة الطريق . وكان الردود كلها كانت
مكتوبة بقلم واحد . ولو شئنا تلخيصها للخصناها في العبارة الآتية « الفرار أو
الردى » . ومرت بخاطري شطربيت أني فراس « فقلت هاشيئان أحلاهما مر » . حسنا . . .
ولسكن إلى أين ؟ وكان مؤشراً على جواز سفرى من القنصلية البريطانية في القاهرة
بالمداد الأحمر « ممنوع نزوله في بلاد كذا وكذا . . » فقلت هذه التأشيرة تكفى
لإثارة الشكوك عند قناصل الدول الأخرى . فاحتلت حتى أخذت جوازاً جديداً
صالحاً لخمس أعوام وحملته إلى جميع قناصل الدول الأجنبية في العاصمة ، إذ
كانت تستوى لدى بلاد أوربا كلها ولسكن اسمى كان مقيداً عند الجميع في القائمة
السوداء ، وكان نصيبي الرفض طبعاً وهل يفت هذا في عضدى ، وقلت إن لكل
مشكلة من مشكلات الحياة حلاً لو أعمل الإنسان فكره . وتدبر الأمر مرة
أخرى ، فوجدت أني لم أجرب القنصلية اليونانية بعد ، فضاللت البوليس الذى
تبعنى ولم أحتج في ذلك إلى كبير عناء فقد كنت تدربت على « الزوغان » ، إذا
امتثلت الحال . وقصدت دار القنصلية ، وسلمت على الكاتب وسألته في
سداجة عن قيمة « الفيزة » ليوم واحد ، لأن لي صديقة أوروبية مسافرة إلى
« اثينا » وأحب أن أشيعها على ظهر السفينة حتى ميناء « بيريه » فقال إن أقل
مدة « للفيزة » عندنا هي ثلاثة أيام وهي « فيزة المرور » . قلت ولستكني أحتاج
ليوم واحد ، قال وأى ضرر عليك إذا أخذتها صالحة لثلاثة أيام . فقلت له
هاتها على بركة الله . ودفعت له القيمة التى طلبها . وأشر لي على جواز سفرى
دون أن يراجع قائمته السوداء .

وأخذت أهدى العدة للرحيل ، فأعلمت صاحب الدار بالآخلاء وأصحابت
ثيابي ، وحزمت كتيبي وأودعتها عند صديق لي ، وأنا أكاد أذوب لفراقها .
واشتريت تذكرة سفر لبلاد اليونان على سفينة رومانية . وأردت قبل الرحيل
بيوم أن أزود ناظري من القاهرة فانسلت من الأصدقاء والرفقاء ودرت أجوب
سبلها وأزقتها على غير هدى . وكنت أدخل في درب وأخرج من شارع ،
لا ألتفت يمينا ولا شمالا ، هائما على وجهي لا ألوى على شيء . وفي النهاية وقع
نظري على « لافتة » لمجلة « ر » الأسبوعية ، فخطر لي أن أزور صاحبها على غير
سابق معرفة وكان لحسن الحظ هناك فاستقبلني في غرفته سائلا عما إذا كانت لي
رغبة عنده يقضيها ، فقلت إنى مسافر إلى أوروبا غدا بقصد دراسة الحالة
السياسية والاجتماعية هناك . وفي النية كتابة رسائل عن دراساتي ، وأردت أن
أعرف ما إذا كانت لكم رغبة في مقالاتي . ففكر قليلا ثم قال « حسنا ! ونحن
مستعدون أن ندفع لك جنيتها عن كل مقال » . قلت « اتفقنا . ولكن يحسن
أن تزودنى بتذكرة صحفية باسم مجلتكم حتى يتسع لى هناك مجال البحث والتنقيب »
وسلمته صورة فوتوغرافية لى كنت أحملها معى ، وكتبت له بالإنجليزية جواب
الاعتماد . وأمضاه وختمه ولصق الصورة عليه واستلمته منه وخرجت مودعا
منه أحسن توديع .

وفي الصباح المبكر قصدت الاسكندرية أحب بلاد مصر إلى نفسى فقيمها
قضيت زهرة شبابى ، فيها درست فى « العباسية الثانوية » ، وفيها ضاربت فى
« البورصة » وجمعت عشرات الألوف من الجنيمات ، فيها بدأت حياتى السياسية ،
وخطبت ألوف العمال ، زرت سجن « كوم الدكة » فى عهد السلطة العسكرية
البريطانية شهورا ، وزرت سجن « الحضرة » ثلاث سنوات فى عهد الاستقلال ،
فيها كتبت وألفت وترجمت ، وكان لى فيها مجالس أنس ولهو ، تعلمت أول

مباذل الشباب في مشائهم ومصايفهم ، حقبة من حياتهم قضيتها في بلاد الاسكندرية
مشحونة بحسام الأحداث

طفت في شوارعها ساعات أسائل الدور والمنازل هل أصابها ما أصابني ،
وهل عدت عليها الأيام كما عدت على ، فكان جوابها صريحا ، لا ! لا !
الشوارع نظيفة ، والعمارات قد جددت شبابها بما أدخل عليها من التحسينات ،
والشمس ضاحكة ، والنسيم العليل يهب من ناحية البحر ، والأمواج اللطيفة
الخفيفة في تسكرها على الصخور كأنما تداعبها باللمس والتقبيل ، والناس رائحون
غادون وعلى وجوههم مظاهر المرح والمسرّة - أما أنا فأسير وحدي كسير
القلب . مهبط الجناح ، لا يأبه لي مارّ ولا مارّة ، كأن لم يكن لي فيها دولة
أغريب أنا ١٩

غريب في بلدي وعقر داري ؟ رحم الله الذي قال :-
ليس الغريب الذي نأى الديار به - إن الغريب قريب غير مودود
ونظرت في ساعتى فكانت الثانية عشرة ، وكان لا يزال باقيا على قيام
السفينة ، والتسبيح ، ساعتان فأسرعت إليها .

أخذت مكاني بين ركاب الدرجة الثالثة ، وأخذت أروح وأجىء على ظهر
الباخرة مشرد اللب . وقبل اقلاع السفينة بقليل أعادت إلى رشدى ضربة على
كتفى من أحد الضباط المصريين الذي استدعاني إلى مقصورة في الدرجة الأولى
وفتح لي (محضرا) طويلا عن وجهتى وأسباب سفري لم يلقه منه إلا عندما أذن
الربان بالرحيل

كل شيء كان على مايرام ، جواز سفري كان صالحا خمسة أعوام ، لم أكن
فارّا من وجه العدالة . ولم تسكن هناك قضايا معلقة ضدى . والسفينة تصفر على

الدوام . فلم يبق على الضابط إلا أن يسرع بالنزول وسلم قائلاً : إلى الملتقى
القريب ! » فلم أفهم ما يعنى ولم أجبه بحرف واحد .

كل شيء حوالى يهتز ويتحرك ، صخب وصياح ، بكاء وضحك ، ولسكل
مسافر مشيعون من أهله وصحبه ، فدرت بعيني في كل مكان فلم أجد صديقا
ولا انسبيا ولا قريبا ، فأضع يدي عن غير قصد في جيبى وأخرج مندبلى والوح به
مع الملوحين . لماذا صنعت هذا ؟ لا أدري . . . وسقطت دمة ساخنة من عيني
هى أول عهدي في سن الشباب بالبكاء .

في الطريق

قضيت ليلتى الأولى في جوف السفينة (دالتسيا) ولم أشعر فيها بمرض أو
ألم فقد اصطليحت الريح والماء ، وكان الهواء بليلا ، والسماء صافية والماء
يترقق ترقق الزئبق . وقد انعكس كل شيء على صفحته فمكّانت السماء ماء ،
وكان الماء سماء ، وتبخّرت (دالتسيا) في مشيتها تبخّر العروس في يوم الزفاف
وهى دائبة على الدوام على السير إلى الأمام فصعد الركاب من جوف الباخرة
إلى ظهرها يمتعون عيونهم بمنظر البحر الخلاب ووقفوا فرادى وجماعات
يلهون ويتسامرون ، يجرّون هنا وهناك ، يروحون ويغدون وقد ارتسم البشر
على سحيا الجميع .

ولقد لفت نظرى رجل وامرأة غريبا الاطوار . أما المرأة فكانت عملاقة
ضخمة الجثة . وقد بلغت من العمر أرذله بينما كان الرجل يناهن الثلاثين أو دونها
قصير القامة مفتول الذراعين ، يشوب وجهه شيء من صفرة ، وبدا لى أنهما
دائما متلازمان ، لا يفترق الواحد عن أخيه لحظة من الزمان . وذكرنى الرجل

في طاعته العمياء وولائه العجيب أمام قسوة واستبداد هذه العجوز بالعبيد في الزمن الخالي .

وتفقدت المرأة الرجل في اليوم الثاني من رحلتها في كل مكان فلم تجده ، فجماعت إلى وأمارات الغضب مرسومة على ديباجة وجهها . وقبل أن تسلم على أو تقدم نفسها إلى قالت لي :-

« هل رأيت جورجنيدس ؟ إلى أين ذهب ؟ »
فأجبته مشدوها . « عفوا أيتها السيدة المحترمة ! من يكون هذا السيد جورجنيدس الذي لم أتشرف بعد بمعرفته ؟ »

« جورجنيدس جارك . ألا تعرفه ؟ »
وهنا أحب أن أضيف شيئا . وهو أن رجال الدرجة الثالثة كانوا يناهون في عذاب مفصولة عن مقاصير النساء .

« آه ! أتقصدين ابن السيدة المحترمة ؟ »
فحملت في غاضبة ، وقد امتلأت عينها دما وصرخت في « ابني ! ابني ! »
فارتج على . . . « عفوا خاخا . . . خادمك »

« دعني وشأني أيها الثرثار » وانطلقت غاضبة إلى مقدمة السفينة فهرولت خجلا مشدوها إلى الجهة المضادة . وكم كان عجبى شديدا حين لحقت السيد جورجنيدس خارجا من عنبر النوم آخذة طريقه نحوى وكان يلهث من عناء التعب كالكلب : ولا أدري ماذا أتعبه ، فدفعني حب الاستطلاع إلى استيقافه والتحدث معه .

« سيدى لا مؤاخذه . السيدة المحترمة خالتك تجد في البحث عنك في كل مكان ، فابتسم ابتسامة مرة وقال « لعلك تعنى زوجي »
« نعم ! نعم ! . زوجك » وأشرت له إلى الطريق الذي سلكته

وعالجت أن أغلب حب الاستطلاع في نفسي ، واسكنه غلبتي . نزلت في السلم ، وفتحت حقيبتي وأخرجت منها ثلاث قطع كبيرة من فاكهة المانجو الفاخرة . ثم عدت إلى ظهر السفينة لأبحث عن الزوجين فوجدتهما في إحدى الروايا ، حيث تمددت المرأة على كرسى من كراسى البحر وقد جلس بجوارها جوار جنيدس القرفصاء على قطعة سجاد صغيرة يعد قهوة العصر . فسلمت وقدمت لهما قطعتين من الفاكهة الغالية فابتسمت المرأة وأخذتهما شاكرة . ومنذ تلك اللحظة صرت نالهما على ظهر السفينة ، ولم يسألانى شيئاً عن شخصي ، ولم أحاول بدورى ان أسألها شيئاً عن شخصيهما . ولم يطنى صوت الرجل الشجى وضربه على السكبان طول الرحلة حب الاستطلاع ، وقد كنت أظامه في نفسي على مضض وأخيراً بلغنا « بيريه » فصعد رجال البوليس السرى والعلاني إلى ظهر السفينة ، ووقف الركاب صفوفاً وفي حلقات ينتظرون الأذن لهم بالنزول إلى الميناء . ولما وصل إلى رجل البوليس . قال « أرجو أن أتى معي إلى مكتب الشرطة في الميناء » وأخذ جواز سفرى معه وسار أمامي . فحلق الواقفون في ، واعبت أفكار السوء في رؤوسهم ومن يدري ؟ فربما حسبوني مزيف نقوداً أو مجرماً دولياً . واسكنى لم أفقد شجاعتي فتركت « دالتسيا » وتبعته الضابط إلى مكتب بوليس الميناء . وهناك سألتني .

« إلى أين أنت من مع السفر ؟ »

وبدون سابق تفكير ، وبدون أى تلعثم . قلت « إلى ألمانيا »

« وأين تأشيرة السفر لألمانيا ؟ »

فابتسمت لأظهر له عدم أهمية هذه المسألة وأجبتة :

« لم يكن لدى وقت في المدة الأخيرة في مصر لوفرة أعمالي وسأحصل عليها

من القنصلية الألمانية في أثينا . هذا أمر هين حدث لى في أسفارى أكثر من مرة . »

فقاطعتني الضابط بشدة وبجمل قصيرة ، وكأنما كان يلقي أوامره على أحد الجنود .

« هذا لأصدقاه يامستر ترانسيت (Mr. Transit) عليك أن تغادر هذه البلاد حتى المساء . هذه هي الأوامر . أنت تعرف الأسباب . إلى الملتقى يامستر ترانسيت . » وأعاد إلى جواز سفرى .

ولم يأخذنى العجب لذلك . وعرفت ماوراء الأكمة . ولستكنى كنت مصمما على التغلب على كل الصعاب ، والصبر على الشدائد . فأشرت فى الحال وبدون تردد إلى سيارة أجرة .

« إلى أيننا ، إلى القنصلية الألمانية . ولكن أسرع بقدر مايمكنك ، » وهناك قيل لى أن أترك عندهم جواز السفر إلى الغد نظرا لضيق الوقت ولوفرة الأعمال لديهم ، وأن أعود فى الصباح لاستلامه . ولم تحمر كل توسلاتى ورجاءاتى شيئا . فاستعدت جواز السفر وعدت إلى السيارة وقلت للسائق « عد بنا إلى بيريه ، ولكن تمهل هذه المرة فى سيرك ، وذلك لانى كنت فى حاجه إلى وقت للتفكير . »

ولما مررت فى طريقى بميدان « أمونيا ، لمحت السيدة والسيد جورج جنيديس ، فلوحا لى بيديهما .

« هلاوا ، أيها المصرى ! »

فاستوقفت السائق ونزلت من السيارة .

« كيف أنت ؟ وكيف تجد نفسك ؟ وماذا تصنع هنا ؟ »

قلت . « لا شيء . لدى أعمال هامة مستعجلة فى برلين واضطرت للسفر من مصر بدون أن أؤشر على جواز سفرى من القنصلية الألمانية هناك . وقد لفت نظرى ضابط البوليس اليونانى إلى ضرورة مغادرة البلاد حتى المساء

وقصصت عليهما ما جرى لي في القنصلية الألمانية .

« عند مسرعا إلى بيريه . فالقنصل الألماني هناك ليس لديه عمل كثير . وأغلب الظن أنه سيؤثر اليوم لك بالسفر إلى ألمانيا . وتجسدنا عصر اليوم في المقهى الواقفين أمامه . تعال إلينا لنحتفل بتوديعك ، جرب حظك ، كتب الله لك التوفيق » .

فصعدت ثانية في العربة ورأى يكاد يلتهب . وقلت للسائق « خذ أقرب طريق إلى بيريه حيث القنصلية الألمانية هناك » .

وصعدت العربة تلالا ونزلات تلالا ، فالميناء تقوم في أرض جبلية . وأخيرا وصلت إلى دار القنصلية وكان القنصل رجلا ذكيا أنيسا يجيد العربية كمصري مثقف ولم يطل الحديث بيننا كثيرا .

سلمت على القنصل بالانجليزية وفي يدي جواز السفر المصري ، فرد عليّ بالعربية ورحب بي أجمل ترحيب ، فطلبت إليه أعطائي « فيزة » بثلاثة أشهر فتناول مني جواز السفر وختمه ووقع عليه ثم أعاده إليّ وهو يبتسم فألقيت عليه نظرة خاطفة فرأيت به تأشيرة الإقامة في ألمانيا لمدة عام

فشكرته وهممت بالانصراف ، فاستوقفني قائلا : « ألم يدهشك شيء » ، قلت دون تفكير : « لا ! »

« وكيف ذلك ؟ انت تحدثني بالانجليزية وأنا أرد عليك بالعربية وطلبت إليّ تأشيرة بثلاثة أشهر فأعطيتك تأشيرة باثني عشر شهرا » . ثم قال معتذرا « ولو كان في استطاعتي أن أمنحك أكثر من ذلك لفعلت » .

قلت : « اعذرني فأني على عجل » وقصصت عليه قصة الضابط اليوناني . « الآن لا بأس عليك » ثم مسح على كتفي ورجاني أن أشرب معه فنجانا من القهوة وقال لي : « لقد كنت قنصلا لألمانيا في مصر في عام ١٩١٤ فاضطهدني

الانجليز في بلدك وسجنوني طول مدة الحرب ، وسلبوا مالي ، وحرموا هلى دخول بلادهم والبلدان الواقعة تحت نفوذهم ، فأخذت عهدا على نفسى أن أحاربهم فى كل مكان . وقد سخرت موقوفك ففعلت كل ما فى طاقتى لمساعدتك . فل لاخوانك من الثاقمين على الاستعمار البريطانى انى فى خدمتهم إذا استطعت إلى ذلك سبيلا .

مرة ثانية فى اثينا . وهناك تناولت غداء فاخرا ، وأنفقت عن سعة ثم أخذت أتريض فى الشوارع ، وعرجت على الزوجين ، وكانا يجلسان مع جماعة من أصدقائهما . وقضيت معهما عصر اليوم . ولما كنى أردت قبل مغادرتى أثينا أن أمزح مع ضابط البوليس الذى اضطهدنى وسخر منى ، فسكتبت له البطاقة الآتية :

سيدى الضابط المحترم !

أسافر اليوم مساء إلى المانيا ، وكما كان بودى أن أمر عليك للتسليم قبل سفرى ولكن ضيق الوقت يحول بينى وبين ذلك . أما لقب مستر ترانسيت ، الذى تفضلت وخلعته على فأنى آسف جدا للأسف لرفضه فلا تهتم باستخراج براهته وأنه ليسو منى جدا مثل هذا الرفض . . . الخ

ولما أزف الوقت سألت جلاسى عن فندق رخيص فى برلين فتطوع منهم رجل غليظ يعمل وكيل أفلام فى القارة الأوربية لأرشادى . قال نعم أعرف فندقا رخيصا أستطيع أن أوصيك به واسمه (إلى فندق السلام) ويقع فى شارع (مارك جراف) أرجو أن تقرى مديره السيد ستيلكا منى السلام ، واستودعتهم الله وأخذت سيارة إلى المحطة وقطعت تذكرة سفر لبرلين ، وصعدت فى القطار المار بسلونيك حيث عملت تأشيرات المرور اللازمة .

في برلين

محطة «أنهاتر» ، محطة «أنهاتر» ، رنت في أذنك تلك الجملة ، فانتفضت في مكانى ، إذ كنت تعباً ونصف نائم من دسقة السفر . مرة أخرى محطة «أنهاتر» ، فتنفست الصعداء ، وتمطيت وأطلت من نافذة القطار لأتأكد من أنى بلغت برلين ، ورأيت حقاً الحروف السوداء على اللوحة البيضاء جليلة واضحة . أى والله نحن في برلين فجمعت أمتعتى وغادرت الرصيف إلى هو المحطة وكأنى هناك قد سمرت في مكانى ، وتمر بي الذكريات القديمة ، القديمة جداً . هنا كنت مرة لابل مرتين مرة في عام ١٩٢٢ ومرة في عام ١٩٢٣ ، ترى قد تغيرت المدينة عما كانت عليه في ذلك الوقت ؟ ولم لا ؟ ألم أتغير أنا كذا بدورى ؟ وفى لمح البصر طفت أمام عيني صور مختلفة ، صالة مضادة ، أناس أنيقون ، موسيقى صاخبة ، ورأيتنى في مقصورة أحد المسارح جالسا وبجوارى أديبة رشيقة نسمع رواية عائدة ، رأيت نفسى في سيارة فخمة أجوب الطرقات وأنفق المال ذات اليمين وذات الشمال ورأيت دفتر شيكاتى . يا لله أية مبالغ هائلة هذه التى كنت أبعثرها فى ليلة واحدة فى أحد السكباريهات . رأيت ذلك لا كما يراه النائم ، ولكن رأيت رأيه رأى العين .

قلت بصوت عال إلى «فندق اكسلسيور» ، لا . . . إلى «فندق اسبلانادا» وهزرت رأسى هزة اليأس . لا . . . لا . . . هذه مدن صغيرة صاخبة لا يطيق الإنسان العيش فيها . غلمان . . . خدم . . . ورؤساء خدم ، موسيقى ، مطاعم ، ومحلات للبريد وللتلغراف ومصارف وتقاليد ، ورسميات ، ولاتنس أن هناك محتالين ومغامرين ، خلعاء وخليعات . هذه صحيفة قديمة طويناها منذ زمن بعيد

وأنا لا أحب اليوم الا الهدوء والسلام . وعند كلمة السلام تذكرت عنوان
النزل الذي أعطى لى فى اثينا ، وقلت والله الا قصدت « إلى فندق السلام » فى
شارع « مارك جراف » متيمنا باسمه لعلّ واحد فيه السلام الذى من أجله تركت
بلدى وهاجرت إلى برلين . وعندئذ أحسست شيئاً من الشجاعة يدب فى قلبى ..
أقفلت على باب غرقى الصغيرة فى الطابق الأعلى للفندق ، وأخذت أحسب
نقودى . لازت أملك ثلاثة وعشرين جنيهًا انجليزيًا . نثرتها أمامى على المائدة .
أربع ورقات رقيقة شفافة من فئة الخمسة جنيهات وثلاث سميكة من فئة الجنيه
الواحد ، أخرجت ببطء كناشيتى من جيبي وكتبت على ورقة فيها الحسبة التالية :

٥ جنيهات أجرة المسكن فى شهرين .

١٤ جنيهات نفقات اقامة لمدة شهرين

٤ جنيهات ثمن معطف للشتاء

٢٣ جنيه

جميل . وعلى الآن فقط أن أجد لى غرفة مفروشة ، وألا أنفق فى الشهر
أكثر من سبعة جنيهات هذا يعنى ١٤ ماركا . مبلغ لا بأس به يستطيع الواحد
أن يرتب حياته على أساسه . وفوق ذلك سأضيف إليه شيئاً مما أربحه لو أنى
كتبت مقالين فى الأسبوع لصحيفة « ر » فى مصر . وأشرفت الحياة أمام عيني .
وانتفضت هذه المرة انتفاضة الرجاء ، ربما استطعت أن أقصد شيئاً فى المستقبل
ويدق الباب .

« تفضل ،

فتتحرك أكره الباب فقط .

« تفضل ادخل ، ولكن أحداً لا يدخل

« لا تؤاخذينى أيتها الأنسة لقد نسيت أن الباب مغلق ،

وأقوم وأفتح الباب فيدخل رجل أشقر الشعر ، أصفر الوجه ، وينحنى أمامي ويقول :

« آسف لست بأنة . . . اسمي ستيلكا مدير الفندق . أحببت فقط أن أعرف ما إذا كانت لك رغبة ما لأقضيها ،
« أشكرك . كل شيء على مايرام ،
« هل ستقيم مدة طويلة في براين ؟
« نعم ! »

فسلم وأقفل الباب وراءه بهدوء وانصرف ، وذهبت إلى مكنتي وكتبت مقالا عن رحلتي من مصر إلى براين ، وغيرت ملابسى ونزلت إلى شارع فردرش وأخذت أجوبه من الشمال إلى الجنوب مرتين ثلاث مرات ، حتى كدت أسقط من الاعياء .

وفي اليوم التالى زارنى السيد « ستيلكا » ووجهه إلى نفس السؤال السابق فقلت له :

« نعم . . . أظن أن مدة اقامتى في براين ستطول ،
« تسمح لى أن أسألك ما إذا كنت مزعما البقاء بين ظهرانينا ثلاثة أربعة أشهر ؟ »

« ربما امتدت إقامتى ثلاثة أربعة أعوام كذلك .
« بالتسم اتسامة خبيثة وقال لى :

« إذا كان الأمر كذلك فسيكلفك الفندق نفقات كثيرة . »

فلم أفهم ماذا يعنى ، وفغرت فمى . وقلت :

« هذا هو رأيي أيضاً ،

« هل وجدت لك غرفة ؟ »

« لا »

« فى استطاعتى أن أجد لك غرفة مريحة ، ليست بالغالية ، أتحب أن تراها ؟ »

« بكل سرور . »

« انتظرنى فى تمام الساعة الثانية عشرة على ناصية الشارع ، ولا تقل شيئاً ، ما

دار بيننا لأحد . »

والتقينا فى الموعد المضروب ، وأخذنى إلى شارع « كوخ » فى البيت رقم ٧ فى الطابق الرابع ، ودق الجرس ففتحت لنا الباب امرأة قصيرة غليظة حسبتها لأول وهلة خادمة الدار ، غير أنه ظهر لى فيما بعد أنها زوجته . وأريانى غرفة كبيرة كراؤها ثمانون ماركا فى الشهر (أربعة جنيهات) وأخرى صغيرة كراؤها ستون ماركا . ففضلت الصغيرة على الأخرى وذهب السيد ستيلكا على أن يأتى بأمتهى ، وابتدأت السيدة تستنطقنى

« كذا ! أنت تملك آلة كاتبة ، وتصرف جنيهات انجليزية . . هكذا قال

لى زوجى ! أصحیح هذا ؟ »

« نعم »

« وستبقى فى المانيا أربعة أعوام ؟ »

« نعم »

« يمكنك أن تعيش بيننا ، كل شىء عندى نظيف ، وإن تجد فى هذه الجملة سكننا رخيصاً بهذا الأجر ، صحيح أنك لو انتقلت إلى شمال برلين ستجد سكننا أرخص ، ولكن أى سكن ؟ دع القذارة جانباً ! الحى حى عمال ، وهناك يسكن العاطلون ، وما أكثرهم عندنا الآن وسيسرقونك كل شىء . أليس كذلك ؟ »

« نعم »

« أمتزوج أنت ؟ »

غلبتني هذه المرأة ، هذه المرأة الغليظة فاخرجتني من « نعم » إلى « لا » ،
« طبعاً ستتزوج من رلين ؟ » وغرقت بطرفها محذرة إياي بأصبعها وقد
ارتفعت على فمها ابتسامة خبيثة

وفي مساء اليوم التالي دعرت السيد ستيلكا وزوجته إلى غرفتي وقدمت
اليهما شيئاً من النيد والفاكهة وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث من هنا وهناك
فقصت علي فيما قصته حكاية زواجها وجاء ضمن حكايتها ذكر خطيبة زوجها
الأولى الأنسة « الزا » ، وهي فتاة رياضية تعرف السباحة وركوب العجلة ، وعضو
في نادى ثقافة الجسم العارى . وعند ذكر هذه الندوة خطر لي أن أكتب مقالا
لمجاني عنها ، واشتدت في رغبة حب الاستطلاع ، فقطعت عليها حديثها ورجوتها
أن تحدثني شيئاً عن هذا النادى

« هذا نادى لعنسية القوم من ذوى وذوات القوام الرشيق يشتركون فيه
ليعرضوا أجسامهم عارية للتفاخر والتنافس ، وكلهم من ذوى السيارات ،
و« ايلزا » التي ذكرتها لك لا تستطيع الاشتراك فيه ، ولكنهما تشتركان في
ندوة أخرى للعمال ،

« أتفتح هذه النوادي أبوابها علانية أو سرا ؟ »

« علانية »

سألتها عن عنواناتها ، فاعتذرت ، وقلت في نفسي : هذه مادة جديدة
للكتابة لا بأس بها .

الآنسة ماكسونج

وفي الليلة التالية جاء الزوجان صاحبا الدار مرة أخرى إلى غرفتي وبقيا
عندي فترة قصيرة . وأخذت الزوجة تشكو : « لاتزال الغرفة الكبيرة خالية لم
تؤجر . زوجي رجل كسول ، يبذر المال تبذيراً ، ينفق ماركاً على سيجاره كل

يوم ، ولا يفكر البتة في غرفتنا الكبيرة ،

وقبل أن ينصرفا باعنى الرجل ثلاث تذاكر لملأه مختلفة بشمن مخفض ونظر إلى زوجته عند ذلك نظرة خبيث وفي صباح ٣٠ سبتمبر أحضرت لي فراوسيلكا الشماى كعادتها وسلمت وبقيت واقفة مكانها تبسم. قلت لها ، « ماذا ؟ وجهك مشرق هذا الصباح . كيف حال زوجك ؟ هل أجرت الغرفة الكبيرة ؟ »

جاءني أمس أحد الطلبة يريد استئجارها . وكنت على وشك القبول ، لأنها بقيت شهرا كاملا غير مأهولة . ولكنه كان ثقیل الظل فترددت . وبعد الظهر أحضر زوجي آنسة أمريكية ، رأت الغرفة واستأجرتها في الحال . عندها كان ، وحقيقية أسفار ضخمة وستبقى هنا نصف عام . يحسن أن يكون المستأجرون من الجنسین ، سأقدمك لها غدا ، .

« أتتكم الألمانية ؟ »

« لا ، ولكن زوجي يستطيع أن يحسب جيدا بالانكليزية ، ون

تو ، ترى ... »

وبرت فراوسيلكا بوعدها . « السيد .. الآنسة ما كسونج ... » .

وكان بين الأمريكية وبين الأربعين أربع خمس خطوات تخطوها على خمسة أعوام ، هيفاء ، دقيقة الأعضاء ، مشرقة القوام ، ذات شعر طويل أسود حالك ، تو ، عض فيه شعرات بيضاء ، يحسده جبين كالحلال في تسكوبنه ، أما عيناها فكانتا خلوتين ، لا تفارق الانسامة الرقيقة فها . وعلى الرغم مما خطته الأيام على وجهها من آثار ، كانت إذا تكلمت انعكس على محياها الضدان ، فتقرأ في صفحة وجهها روح الثورة التي ورثها أياها دم جدودها الأيرلنديين ، وروح البساطة التي ولدتها فيها تربية بوسطن الديموقراطية . هذه هي ما دأين ما كسونج ،

مدرسة موسيقى . أوفدها المعهد الذي تدرس فيه إلى ألمانيا وفرنسا لتعلم

لغتي البلدين في موطنهما ، على أن تبقى نصف عام في كل بلد من البلدين لهذا الغرض . عرفت اسم « إلى فندق السلام » من الدليل .

وبعين الصقر ، وانف الكلب وقع ستيلاكا في الحال على فريسته ، رأى السكان الثمين ، وحقيبة الاسفار الهائلة والدولارات القيمة ، فانتزعها من الفندق إلى داره . وهكذا صارت ماداين ما كسونج جارتى

تركت الامريكية لأول مرة في نفسى أثرا عميقا طيبا . ووطدت الوحيدة والجيرة أواصر الصداقة بيننا . كلانا غريب في المانيا . وفضلا عن الجوار فانا كننا نتفق في كثير من الميول والأذواق ووجهات النظر في الحياة . فلم تمض الا أيام قلائل حتى ألف كلانا الآخر وسكن اليه ، واتفقنا على الانتساب لمعهد اللغة الألمانية الملحق بجامعة برلين . فسكننا نقضى هناك ساعتين في صباح كل يوم . كما كننا نتناول طعام الغداء معا ، ثم تقصد بعده الدار لتستريح بضع ساعات ولتجرب بعض الترينات على كمانها : أما أنا فكنت أتسكع في غضون ذلك في شارع فردرش وما حواليه أقطعة جيئة وذهوبا قتلا للوقت ، وباحثا في الوقت نفسه عن مادة طريفة لمقال أكتبه لمجلى . وكننا نلتقى في المساء في غرفتها أو غرفتى فنقضى الوقت في درس اللغة الألمانية والحديث والمناقشة وكثيرا ما كانت تضرب لى بعض المقاطيع الكلاسيكية على كمانها . ومن وقت لآخر كننا ندعو اليها صاحبي الدار أو نزور دور السينما والتياترو .

وطال عهدي بالتنقل عدة أيام في شارع فردرش وطال وقوفي أمام وجهات حوانيته والتفرج على مايحتويه فانطبع في ذاكرتى بالتدريج صورته وحفظات أسماء ونمر المحلات عن ظهر قلب . وكان في مقدورى أن أدخل في امتحان أو مسابقة في هذا الباب وأنجح بتفوق . فقد بت أعرف بالضبط مكان كل حانوت .

ولكن الأنسة ما كسوتج كانت تأخذ ذلك على سبيل المزاح . وجاءت ذات يوم ويدها ورقة وأرادت امتحاني .

« اصغ إلى جيدا . . قد بدأ الامتحان . . هل تقدر أن تذكر لي أية عملات تحمل النمر الأربع الآتية - ١٩٥ - ٥٨ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ ،
« أرجوك أن تذكر لي كل نمرة على حدة ،
« حسنا . . نمرة ١٩٥ ؟ »

لم أفكر لحظة ، بل انطلقت انطلاق السهم على نفس لم آخذه قائلا :
« دكانة خالية على ناصية شارع ليبزج »
« عجيب ! »

ثم زدت مفاخرا « على الجانب الايمن »

« و ٥٨ ؟ »

« نخارة اسمها - بيعة وينيد من الدن - على الجانب الايسر »

« منتهى الإعجاز ! »

« و ٢٧ ؟ »

« على الجانب الايسر » معهد لدراسة الكهرباء وعرض أفلام السينما ،
« ها ها ها ها ! »

« و ٢٨ ؟ »

« مدرسة لتعليم السحر »

« ستة من عشرة . وهذا فوق المتوسط بالطبع »

« وكيف ذلك ستة من عشرة فقط ، أتراني أخطأت ؟ »

« لا تغضب كذا . مجرد سهو . مسألة تافهة من كثرة ماذا كرتك للشارع ،
فقد اختلطت عليك المدرستان »

« نعم ! نعم ! عندك حق ، ولكن هذا ليس بالأمر المهم فمجازنا الناس عندنا
في القري ما زالوا يعتقدون أن الفلم ليس إلا سحرا ، بل حتى أن بين شيوخنا
نغرا يهرس على أن السينا بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة من عمل الشيطان »
وكان قد مضى على تعارفنا نصف شهر ولكن أواصر الصداقة كانت قد
تواطدت بيننا ، فسألتني عن جولاتي المنفردة في شارع فردرش في العصر وعلى
الأخص بعد أن بلغت غايي من الشارع . وأظهرت رغبتي في اصطحابي في تلك
الفترة وتمنت لو فكرنا في رؤية بعض المناظر الغربية المثيرة مما اشتهرت به برلين
قلت : « لست أعصى لك طلبا ، وعندي لك غدا مفاجأة لم تخطر لك على بال »
وألحت عليّ أن تعرف شيئا عن هذه المفاجأة فلم أبج لها بسرها فقد كنت
في غضون الأيام الفائتة مجدا في معرفة متنبات العراة . وقد وفقت اليوم فقط
إلى معرفة عنوان أحد زعمائها . فاتصلت به وحدد لي موعدا لعمل حديث معه
غدا . فتذكرت الموعد عند رجاء الامريكية لي ، واعتزمت على اصطحابها معي .

رياضة العراة

طرقنا باب الدكتور « مورين هوفمان » زعيم أشهر فرقة للعراة في ألمانيا
في الموعد المضروب وكان لحسن الحظ يقيم على بضع خطوات منا وقدمت له
الآنسة ما كسونج كسكرتيرة لي وبعد أن حيانا أظهر استعدادا للأجابة على
أى سؤال أوجهه إليه .

« من المؤسس الأول لطريقة الرياضة العارية أو فرق العراة في ألمانيا ؟ »
« منذ نحو ثلاثين سنة كتب - أونييفتر - من شتوتجارت - رسالة في هذا
الموضوع تعد نواة هذه الحركة . ثم أوردتها بإنشاء فرقة صغيرة جدا لم يكن لها شأن
يذكر : بعد ذلك أخذت الحركة في النمو والانتشار »

« ماهى أغراضكم الرئيسية ؟ »

« أولا - نشر الآداب بالرجوع بالناس إلى الحياة الطبيعية وإبعاد أفكار
السوء من مخيلاتهم بتعويدهم النظر إلى الأجساد العارية وأكبر رجائنا معقود
على تعويد الصغار أننا وذكورا الرياضة العارية منذ الصغر .

ثانيا - تقويم الأجساد والبالغ بها حد الكمال بممارسة الرياضة الطبيعية
الخفيفة كلعب الكرة والتجديف والسباحة والجرى الخ. مع البعد عن أعمال
الرياضة الثقيلة مما يجهد الجسم كحمل الأثقال ، أو الرياضة الذهنية العنيفة مما
يذهنى الذهن ، لأنه يستلزم حصره فى ناحية مخصوصة كالألعاب التى يقوم بها
بعضهم على المسارح من اللعب مثلا بعشرين حلقة فى وقت واحد والتقاطها من
الهواء بدون أن تسقط على الأرض ،

« ماهو موقف رجال الدين إزاء حركتكم ؟ »

« عندنا كثير من قساوسة المسيحيين واحبار اليهود ،

« كم فرقة لهذا النوع من الرياضة فى ألمانيا ؟ وكم منها فى برلين ؟ »

« يوجد فى ألمانيا أكثر من مائة فرقة . وفى برلين يوجد نحو ثلاثين فرقة ،

« هل يوجد بينها اتحاد أو رابطة ؟ »

« نعم ولها مؤتمر يعقد مرة فى كل عام ،

« هل لهذه الجماعات أغراض سياسية ؟ »

« تنقسم هذه الجماعات إلى قسمين قسم له أغراض سياسية وقسم لاشأن له
بالسياسة والقسم الآخر أنا رئيسه . أما القسم الأول فينقسم إلى قسمين فريق
اليمن وفريق اليسار . ويمثل فريق اليمن الجماعات البورجوازية ويمثل فريق
اليسار جماعات العمال ، وهذه الفرق الأخيرة إنما أنشئت لمنافسة الفرق البرجوازية .

وهذان القسمان رغم اختلافهما في الأغراض السياسية فانهما يشتركان مما في
الأغراض الأدبية والصحية .

« هل لهذه الحركة أنصار في الممالك الأخرى ؟ »

« نعم فالحركة موجودة بالفعل في كثير من الممالك الأخرى وآخذة في النمو
في فرنسا وبلجيكا وهولندا وانجلترا والنمسا وسويسرا ، ولنا نحن أعضاء في جنوب
أفريقيا وفي أمريكا وفي الصين والهند . وإذا صادف أن زار أحد هؤلاء بلادنا
فأنه يفد اليها ويتمتع برياضتنا البريئة . والمصري الوحيد المنضم لنا مقيم الآن في
فرنسا وقد مارس رياضتنا في زيارته الأخيرة لبرلين وكان طربا مسرورا »

« ماهو موقف الحكومة إزاءكم ؟ »

« على أحسن مايرام ويوجد بين رجالات الحكومة المعدودين أعضاء في
فرقتنا وقد منحتنا الدولة غابة فسيحة ودارا للاستحمام نظير أجر منخفض جداً ،
« ماهي طريقة الانضمام إلى فرقتكم ؟ »

« يملأ الراغب استمارة معدة لذلك وبقدمها اليها ونحن نبحث إجابته ويناقش
فيها . فمثلا إذا كان رجلا متزوجا سأله لماذا لم تشترك زوجته معه ، وإذا كانت
سيدة متزوجة سألهما بدورها عن سبب عدم اشتراك زوجها ، وماهي الأسباب
التي حثت بالطالب إلى طلب الانضمام إلخ

وفي بعض الاحايين يطلب منه تزكية من بعض الاعضاء . وأدنى حد
الاشتراك مارك واحد في الشهر .

« هل لكم لسان حال ؟ »

« نعم ، وقدم لي مجموعة من مجلة اسمها - دي فراي كوربر كلتور -

« هل تسمحون لغير الأعضاء بزيارة نواديكم ؟ »

« لا . إلا أنه في بعض حالات استثنائية يطلب بعض الأعضاء تذكرة

ضيافة - لبعض أقاربهم أو أصدقاءهم الأعزاء عند الوثوق من « يولهم نحرنا »
وجرت العادة أن هؤلاء الزوار يشتركون عندنا على الفور ،
« ألا يمكنكم أن تساعدوني على عمل زيارة واحدة ؟ »
« الطريق سهل . املاً طلب انضمام وبعدها يبقى لك الحق في زيارة أو أكثر .
واليك بعض الاستمارات »

وقدم لي ولسكريتي بعض طلبات انضمام فأخذناها مبتسمين واعددين
بالتفكير قبل الانضمام ، وسلمنا وخرجنا بعد أن شيعنا إلى الباب الخارجى
ولم نسكد نخطو عتبة الدار حتى انفجرت صديقتى فى الضحك وقالت « حقاً أنها
لمفاجأة عظيمة »

قلت « لا ، بل ان المفاجأة الحقيقية ستكون غداً . فقد سبق أن ارتبطت
بمؤعد مع الهر كوخ رئيس فرقة من فرق العمال العراة على زيارته فى النادى
ورؤية فرقة عارية . ومكان النادى لا يبعد كذلك عن دارنا فهو قائم فى شارع
فردرش . فهل لك ان تصحبينى غدا ؟ »

فاهرت وجنتاها وأشاحت بوجهها جانبا وقالت مبتسمة « أعدك بالتفكير
قبل الأقدام »

وبعد تردد وتفكير طويل قصدنا فى اليوم التالى نادى الهر كوخ الذى كان
فى انتظارى . قدمت له سكريتى فرحب بها . وطاف بناغرف النادى جميعا .
ثم انتهى بنا المطاف إلى صالة فسيحة وجدنا فيها عددا من النساء والأطفال
والرجال يبلغ نحو الثلاثين عراة الأجسام والعورات . سلم عليهم الرئيس
وأخذ مجلسه أمام البيانو فى زواية الصالة وعندئذ انتظموا فى صفين وأخذ يعزف
لهم على البيانو وأخذوا يؤدون بعض الحركات الرياضية على دقات الموسيقى .

والعجيب الذى يحب ان أقرره هذا أن هذا المنظر لم يثر الشهوة فى نفسى بل على العكس أثار الاشتئاز فيها ، وكما كان منظر المرأة كريها وهى عارية تثب وتمايل وتأرجح .

وصمتت الموسيقى ، وانتهى القرين ، وانطلق العراة على الأثر إلى النوافذ يفتحونها على عجل ، فقد فسد جو الصالة ، وأصبحت رائحة الهواء لا تطاق . وتسابقوا جريا إلى الحمامات وهناك وقف كل واحد منهم تحت (الدش) وأظهر الهر كوخ استعدادة لقيادتنا إلى أحد حماماتهم الليلية للسباحة وإلى إحدى غاباتهم فشكرنا له حسن استعداده ولم نفكر بعد ذلك فى الاقتراب من هذه الجماعات على اختلاف طبقاتها

محاولات فاشلة

وانصرم شهر أكتوبر ونوفمبر وانقصف ديسمبر أو كاد . أيام كلها طيبة أذكرها بالخير قضيتها مع الأمريكية فى درس اللغة الألمانية ، والمطالعات وتعرف أسرار المدينة . وصلى من مجلتي اثنا عشر جنيتها ضمنتها إلى رأسى الذى أنفق منه فى غير بسطة ولا تقدير

وأخذ عام ٩٣١ يسير وئيدا إلى قبره وأخذت أنفاسه تخمد يوما عن يوم وبرلين واقفة على قدم وساق تستعد لتشيعه إلى مقره الأبدى واستقبال خلفه مؤملة الخير على مقدمه . . وفى صباح يوم من أيام ذلك الشهر وصلى كتاب من مدير المجلة يعتذر فيه باعتذارات سخيفة عن عدم مقدرته على مواصلة دفع أجرى ، فكان أول صدمة لى فى برلين فلم يكن لدى مورد آخر . وكانت حالة ألمانيا على العموم وحالة برلين على الخصوص من السوء بمكان ، وذلك بسبب تفشى البطالة . ولم يبق أمامى إلا الاعتماد على النفس وأين ؟ فى بلد فيه ملايين من العاطلين .

أحصيت ثروتى فوجدتني أملك ٢٠٢ مارك ، إذن لا يزال أمامي شهر بل شهران أستطيع أن أحييهما في برلين . وفي غضون هذه المدة سأحاول البحث لى عن عمل فلا معنى لليأس . فلأرفع رأسى ! ولأمكن ماذا عساي أن أعالج من الأعمال ؟ صناعتى الصحافة وهى أحب شىء عندى فى الوجود . ولم لا . ألا أعد هنا خبيرا فى المسائل الشرقية . طبعى إنه لا يوجد هنا أناس كثيرون يعرفون فى هذه الناحية معرفتى ، فعلى أن أسرع

قصدت الصحف على اختلاف أنواعها ولأمكن النجاح لم يكتب لى عند إحداها فى كبريات الصحف يوجد أخصائيون بل قسم خاص بالشرق الأوسط والشرق الأقصى ، أما صغرها فبالا تطبيق توظيف محرر خاص لشئون الشرق وقد استغرقت هذه المحاولة منى أسبوعا .

حبست نفسى فى غرقى وسخرت منها ، أو كنت تريد أن تصدر فتحها الى نيوكاسل . . وذهبت إلى مكتبى ونقبت فى أدراجى فلم أجده شىئا ، أربعة معاجم ضخمة فوقه وكتاب الأجرومية الألمانية ، وبضع أوراق بيضاء وأخرى مكتوبة . قلبت جيوب بدلتى بعناية فائقة ، ويعلم الله وحده لماذا صنعت هذا وأخيرا أفتح حقبتى فيقع نظرى على مائة كارت بوستال ، كنت أخذتها معى قبل مغادرتى مصر .

فكرة طيبة ! كم يمكن أن تدر الكتابة على صاحبها ، وفى كل مكان كتاب وأدباء يتضورون جوعا . لا بد لى من تغيير مهنتى فأبتدىء كتاجر من جديد . خطر لى أن أبيع هذه الصور على الصحف الأسبوعية المصورة ، وقد أنجح . ولم لا أنجح ؟ الناس فى الشرق يهتمون بصور أوروبا فلا بد أن الأوروبيين يهتمون كذلك بصور الشرق ويشغفون بها . وفى استطاعتى أن أكتب لبعضهم فى مصر لبيعث الى بائعهم بصور جديدة وأعده بشىء من الربح . حقا إنها افكرة

مدهشة . الا انه على في هذه المرة أن أظهر بمظهر التاجر . وإذا كتب لي النجاح
فسأؤسس لي شركة لبيع الصور . وابتسمت لقصوري الهوائية ووجدت اسما فخما
مشيرا لشركتي « شركة الصور المصرية للصحف في الداخل والخارج » اسم له وقع
رنان . تنقصني كثير من الصفات التي تلزم التاجر ليكتب له التوفيق ، كالحفة
والصفاقة ، وأنا شديد الحياء ثقيل الحركة . والذين ليس لديهم من الصغر استعداد
لمثل هذا ، يلزمهم وقت طويل للتعليم . شيء من التمرين في الدار قبل
الاقسام .. ثم أجرب حظي ..

واقترحت من الآنسة ماكسونج حقيقة أوراقها وطبعت بطاقة لي وبدأت
العمل . زرت دور المجلات المصورة ، وصعدت في عدد لا يحصى من السلام
ونزلتها ، وعرضت على رؤساء التحرير بضاعتى ، ولعبت دورى على مايرام ، ولكنى
لم أحصل على شيء فقد ذرعت برلين من أقصاها إلى أقصاها دون أن أبيع
صورة واحدة . كانوا يقلبون فيها دون اهتمام ويقولون « آه آسفين . » « من
هذا لدنيا الشيء الكبير » « نحن نرغب في صور حديثة . صور اليوم اترك
لنا عنوانك وعند ما نحتاج إلى شيء ندعوك . . . »

عدت إلى دارى من الزيادة الأخيرة ثملا أترنح كالسكران .
أغلقت باب غرفتى على وألقيت بالحقيقة في إحدى الزوايا وأخرجت نقودى
من جيبى وأخذت أعدها بسرعة . لا زلت أملك ١٤٠ ماركا . ذهبت إلى مكتبى
وأخذت أعد نقودى من جديد . وفى المرة الثالثة قلت مخاطبا نفسى بصوت عال .
وماذا عماك ترجو من النقود ؟ ١٤٠ ماركا ألمانيا تميميتها بكل أسف غير ميسور
ولماذا بالله عليك تحزن الآن وأنت لاتزال ميسورا . فى استطاعتك أن تحيا
سبعة أسابيع أخرى على الأقل .. وعليه فقد ضمن رزقك حتى منتصف فبراير .

وهل كنت تنتظر شيئاً آخر يوم غادرت مصر؟ وهل وعدك أحد من الأهل أو الأصدقاء بمد يد المساعدة؟ وأجيب على نفسي « نعم هذا ما أعرفه جيداً وأعرف أكثر منه . ولكن الشتاء قد ابتدأ ولم أجد عملاً . ولا شك أن البرد والجوع سيقتلاني . ولكني أعلم كذلك اني سأصبر على الجوع والبرد كما صبرت على غيرهما . فبم هذا الخوف الخائق ولازات أجلس في غرفة ممهمة ولدى طعام ومعى ١٤٠ ماركا »

وكم تمنيت أن أصبح فقيراً لا أملك هذه الماركات فاني لم أعد أطيق سيف التهديد بالحاجة والعوز مصلتنا على عنقي .

وسمعتني الأنسة ما كسونج أتكلم فدقت الباب ودخلت . فرأت شعري الأشعث ووجهي المتغير .

« هل اختلفت مع أحد؟ لقد سمعتك تتكلم غاضباً بصوت عال فأردت فقط أن أطمئن عليك . »

« نعم . نعم . كنت غاضباً ولكن على نفسي . ولقد ضعفت وجبنت حتى صرت لا أقوى على منازعة أحد ولم تعد تعجبني نفسي »
« لا أفهمك ؟ »

« لقد أنذرنى السخيف صاحب المجلة . والصحف الألمانية عندها اختصاصيون في المسائل الشرقية ، والمجلات تريد صوراً حديثة »

« لا أفهمك ! اجلس أولاً أوضح لى الأمر فى هدر . »

استيقظت فى صباح اليوم التالى مبكراً لأبحث لى عن غرفة رخيصة لأنى صممت على تخفيض نفقاتى الى أدنى حد ، على فرصة تسنح للعمل . وذكرت أن فراو ستيلسكا كانت قد تكلمت عن الغرف الرخيصة فى الشمال . فأنذرتها بالاخلاء فى آخر يناير . وببحثت عن غرفه رخيصة هناك فوجدت غرفاً رخيصة

كثيرة واسكن أصحابها يطلبون علاوة على الأجر ثمنًا للنور والنفار والتضييل والاستحمام والخدمة الخ الخ . وأصحاب هذه الغرف معذرون فهم من العمال المجذودين ، ومعظمهم بدون عمل ، وعليهم أن يكسبوا شيئًا ليسكنوا به رفقهم . هكذا قالت لي عجوز محطمة والدموع في عينيها .

عدت إلى غرفتي منهوكا . فقررت أن أبحث عن غرفة في حي الأثرياء عند أناس لا يعيشون من الأيجار وان كانوا ينافسون هؤلاء الفقراء التمساء . فقصدت حي الغرب فرأيت أكثر من خمسين غرفة فيها أنواع الراحة موفرة فاستأجرت لي غرفة في ميدان نورنبرج نظير ٣٣ ماركا في الشهر . وبقيت عند « ستيلكا » حتى آخر يناير ، وكان لا يزال في محفظة نقودي ورق بنسكنوت وفي جيب صدري عملة صغيرة ولم اضطر حتى هذه الساعة إلى التنازل عن وجبة من الطعام إلا أن عيني أغفت قليلا في هذا الشهر فقد كنت قلقا لخوفي من شبح الحاجة .

مترجم

كانت مقدمات عام ٣٣ مقدمات ليست بالطيبة ، فيها فقدت عملي في صحيفة « ر » وكانت بدايته مفاجئة ، فقد اضطررت لإصدار ستيلكا والبحث لي عن غرفة بعيدة ، فانفصلت عن رفيقتي ، وفيه انتهت مدة دراستي في المعهد الألماني فلم أعد أدري كيف أقضي وقتي وبانتهاء الدراسة انقطعت صلاتي بالجامعة والجامعيين . وأخذ رأسمالي فيه يتناقص يوما عن يوم ، وهوم شبح الحاجة في الليل والنهار حوالى

ورأت الآنسة ما كسونج حالى فرئت لها وكتبت إلى معيها في بوسطن تطلب مد أجل إقامتها في برلين بضعة أشهر ، لأنها أبت الانتقال إلى باريس قبل أن تطمئن على

وأوشك الشهر على الانصرام وأردت أن أزور أصحاب الدار الجديدة قبل الانتقال إليها .

فأخذت طريقى إلى هناك سيرا على الأقدام ولم أنقبه إلى نفسى الا فى شارع بوتسدام . فأردت ان اشترى دخانا فوقع نظرى على اعلان كبير على واجهة الدكانة عن يا نصيب كبير $\frac{1}{8}$ ورقة بخمسة ماركات تربح مائة الف مارك . قرأت الاعلان عدة مرات وأعلمت فكرى .

حقا ما أذكى أولئك الناس الذين اكتشفوا اليانصيب ! انا أعتقد أنهم إنما أرادوا به أن يسدوا يداً للفقراء والتعساء ، أرادوا به أن يخففوا أعباء الحياة والوجود عن المتألمين والمحطمين بالأماني والآمال المعسولة ، قصدوا بذلك معاونة هذه الجماهير العديدة فى بأسها ، ولم يقصدوا به أبداً ذلك العدد القليل من الأثرياء والمحظوظين . فهو دواء مسكن هائل . هذا هو الدواء الذى أبحث عنه . انا لأطمع فى مائة الف مارك انى لأقنع ببضعة الوف . ولكن خمسة ماركات عزيزة على . وعلى هذا فلا أظن أتعس خلق الله سيكون أسعدهم بين ملايين المؤمنين بربح النمرة الكبرى

دخلت الدكانة وسألت عن أرخص « لوتريه » عند صاحبها
« أرخص لوتريه تسوى نصف مارك واسكنها لاتربح غير عشرين الف مارك فقط »

« لا بأس حتى ولو قل الربح عن ذلك بكثير ، وإذا شئت ان تعرف الحقيقة فان المسألة عندى ليست مسألة ربح واسكنى راغب فى مسكن ، فلم يفهمنى الرجل

والحق انى بقيت عدة ليالات وأيام محظوظا ، تصورت فيها كل أنواع النعيم ، انه دواء فعال مجرب فقد كان أثره فى نفسى عظيما .

استأنفت سيرى ، فبلغت شارع لوتر وكانت الساعة تدق الحادية عشرة فتنبهت إلى نفسى وهناك لحظت لافتة مكتوب عليها « الجمعية الألمانية لتوثيق العلاقات بين الشرق والمانيا » فبقيت واقفا أمامها عشر دقائق أقرأها وأفكر وأعيد قراءتها ، ترى ماذا يكون من أمر هذه الجمعية وكيف لا أعرف عنها شيئا

وامتناقنت المسير إلى شارع « كليست » ومن هناك إلى ميدان « فتنبرج » واخذت
مجلسي هناك على أحد المقاعد ثم نهضت واقفاً وسرت في شارع « يرويت »
فوصلت في النهاية حيث « اللافتة » . أنا شرقي ومن حق أن أكشف أغراض
هذه الجمعية وقررت اقتحام الدار . دققت الجرس ففتح لي خادم ، وسألني عن
أريد مقابلته .

« رئيس الجمعية »

« تعني البروفسور الدكتور شريدر »

فابتسمت قائلاً : « نعم البروفسور الدكتور شريدر »

« كان هنا أمس . لا يأتي إلا مرتين في الشهر عند انعقاد مجلس الإدارة »

ظلمت واقفاً في مكاني لا أتحرك فسألني عما إذا كانت لي رغبة أخرى

« ربما استطعت أن أتحدث قليلاً إلى السكرتير »

« الدكتور جراهام ؟ من أقول له ؟ »

« قل له فقط أحد المصريين يحب أن يراك »

فقادني إلى غرفة صغيرة بها مائدة عليها عدة صحف قديمة بلغات مختلفة
فلاحظت في الحال أن الصحف العربية غير موجودة بينهم . وبعد قليل عاد
الخادم وقال لي

« الدكتور جراهام في انتظارك »

والدكتور جراهام رجل طويل القامة ، نحيل الجسم ، يضع منظاراً على عينيه
تبدو على وجهه أمارات الذكاء . تقدم يستقبلني بضع خطوات باسمي . وبعد أن قدم
كلانا نفسه الآخر ، قدم لي كرسيًا بقربه وسيجارة فاعتذرت له في أدب وأشعلت
غايوني . والرجل كما فهمت من حديثه مستشرق يعرف شيئاً من العربية .

« لفتت نظري لافتتكم ، وأنا كصحفي أهتم طبعاً بكل ما يختص بالشرق

ووصلاته بأوروبا، لذا سمحت لنفسى أن استعلم عن أغراض الجمعية وعلاقاتها
والوسائل التى تستخدمها لتحقيق هذه الأغراض، وقبل كل شيء أحب أن
أعرف شيئاً عن علاقاتها بمصر .

فأجابني بتؤدة . « وهل تسمح لي قبل كل شيء أن تقول لي أية صحيفة ترأسل
في مصر ؟ »

كنت قبلاً مراسلاً لصحيفة « ر » ، والآن أكتب من وقت لآخر مقالات
في صحف ومجلات مختلفة في القاهرة ،
« أحب أن أعرف فعلاً شيئاً أكثر من ذلك . أى نوع من أنواع الكتابة
تعالج ؟ وهل لك مؤلفات ؟ »

فذكرت له بعض الكتب فقال : « نحن في حاجة لرجل مثلك . والآن
أستطيع أن أجيبك على أسئلتك بتفصيل . »

أنشئت جمعيتنا منذ خمسة أعوام لتنمية العلاقات بين الشرق وألمانيا
والحكومة تعاونها ببعض المال وعندنا كذلك عدد كبير من الأعضاء وعلى ذلك
فنحن نخدم الفنون والعلوم والسلام بطريقة مباشرة ونحاول تشجيع التجارة
والصناعة بطريقة غير مباشرة . ووسائلنا سهلة تبادل الكتب والمجلات بيننا
وبين البلاد الشرقية ، والاتصال بالمشقفين وإلقاء محاضرات الخ . ويوجد لنا تقريباً
في الشرق فروع في كل بلاده ولنا مراسلون أخصائيون . وللأسف ليس لنا
فروع ولا مراسلون في مصر حيث لم نوافق فيها الآن إلى معرفة شخصية لطمئن
إليها . ومجلس إدارتنا يتألف من البروفسور الدكتور شريدن والدكتور
برجان وأنا . كم أنا آسف لأنك لم تزورنا أمس بدل اليوم . أرجوا أن تعاوننا في
مجهوداتنا عند عودتك إلى وطنك ،

« ماهو عمل مراسليكم ؟ وهل تدفعون لهم اجرا ؟ »

« يكتبون تقارير عن تقدم العلوم والفنون والصناعات في تلك البلاد
ومعظمهم لا يؤجرون على عملهم وحالنا لا تسمح بدفع أجور كبيرة ندفع في
الصحيفة ما ركين . إيتك تكتب لنا عن الحالة في مصر ، وأنه ليس لنا أن
تقبل ذلك »

« بكل سرور . غير أنه يلزمي الاشتراك في بعض الصحف المصرية »
« تستطيع أن تشتريها مؤقتاً على حسابنا من محطة تسو - إلا أنه يجب عليك
أن تزور أولا البرفسور في داره . سيوافق طبعاً . عنوانه شارع فلير سدورف .
وسأدعوه بالتليفون لتحديد موعد للزيارة . . البروفسور شريدن ينتظر لك غدا
في الساعة العاشرة صباحاً »
« أشكرك إلى الملتقى ! »

وكنيت عند الدكتور شريدن في الساعة العاشرة وعشر دقائق . وهو رجل
يتراوح عمره بين الستين والسبعين ، قصير القامة ، نحيل الجسد كليل البصر ،
كلفه طول الدرس والتدقيق في الحواشي وفك الخطوط نور باصريته ، أستاذ
في فقه اللغة ، استقبلني في مكتبه وما أدراك ما مكتبه ! حسبك من وصفه أن
حيطانه مغطاة من الأرض إلى السقف بمختلف الكتب والمجلدات . وفي وسطه
موائد ممدودة محملة بالأسفار وبينها سلم ، وفي إحدى الزوايا مكتب وكريسيان .

« أرجو معذرتي للتأخير بضع دقائق . ولا تظن التأخير في طبيعتنا نحن
الشرقيين كما يقول عنا الأرييون فقد أخطأت رقم الدار واضطرت للبحث في
كل الدور القريبة ، حتى أتيت عند جارك الدكتور شريدن »

فققه ضاحكاً . « لا أفهم كيف نزل هذه الزلة . . إن اسمي بالبدال وعجيب
أن رجلاً مثلك مثقف قرأ جيته يقع في مثل هذا الخطأ . . كأجني لا بأس
بلغتك الألمانية »

أخذ يتحدث عن أصل اسمه واشتقاقاته ، وقد استغرق حديثه اللغوي ساعة كاملة . . فأصابني التعب والملل فقلت له : « لا بد أن تتقابل مرة أخرى » فقال لي : « عندك يومان تختار منهما الموعد الذى يناسبك : يوم الاثنين المقبل أو الثلاثاء فى الساعة العاشرة واكتب لى تذكرة قبل قدومك . »

ولما خرجت من عنده لم أستطع أن أكون فسكرة عن الرجل . وفى يوم الأحد كتبت له بطاقة لينتظرني يوم الثلاثاء فى الموعد المحدد ، راجعت التذكرة عدة مرات حتى لا يجد فيها غلطة فقد كنت أخشى أن يحاضرني فى الغلطة طول الوقت وأخرج دون فائدة . وأعطيتهما لأحد الألمان ليراجعهما

وفى الموعد المحدد ذهبت إلى الدكتور فاستقبلنى استقبالا وديا وكانت البطاقة فى يده وقال لى « لا بأس بلغتك كأجني . قل لى أيرجع نسبك إلى أسبانيا ؟ لقد تراهنت أمس معى زوجى . هى تقول انك عربى وبهذا المناسبة امرأتى فتية لا تعرف شيئا فى فقه اللغة ، هى موسيقية موهوبة ، ومن أحسن من يضرب على البيانو ، وأنا استنتجت أنك أسباني من ال التى فى اسمك ،

« كل ما أعرفه أنى مصرى . وربما نشأت عائلتى فى بلاد العرب »

« ولسكن ال هذه فى اللغة الاسبانية . . . »

وحاضرني طول الوقت فى ال . . . وأخذ التعب يبدو عليه وخفت أن يكون نصيبي فى هذه المرة نصيبي فى المرة السابقة . فلعلنت فى السراسمى ولعلنت اللغة العربية والاسبانية وعلى الأخص ال وانتهزت فرصة صمته لحظة لياخذ نفسه وقلت :

« إننى لأعجب لاتساع معارفك ولسكنى لا يحق لى أن أعجب من رجل له مثل مكتبتك »

فابتسم لمداهنتى : « هذه الغرفة إحدى ثلاث غرف تسكون مكتبتي »

وخوفاً من أن يمسك الأستاذ بكلمة مكتوبة أسرع في التحدث بشأن مسألتى .

فقال : « نعم تستطيع أن تبدأ بالعمل ، واحضره إلى في جلسة المجلس المقبلة ، وهذه المناسبة لا تنس أن تذكرنى أن نسأل زميل الدكتور جراهام والد كاتورة برجمان عن ال . فنحن لم نتفق فيما بيننا للآن » ويل لى ولاسى »

كتبت تقريراً من الصحف العربية في أسبوع يقع في خمس صفحات وقلت في نفسى هذا معناه أنى أكسب عشرة ماركات فقط في الأسبوع أو بعشرة أخرى . مارك في الشهر . هذا يستحيل ، فتوسعت في الكتابة فجعلتها عشر صفحات . وذلك أيضاً قليل . وعلى ذلك جلست من جديد وعملت له مقدمة وخاتمة وعلقت بتطوير على كل نقطة وبذلك وقع تقريرى في عشرين صفحة .

ثم ضحككت وقلت بارك الله في معلم الأنشاء العربى فقد كان يعطى أحسن النمر للطلبة الذين يكتبون أطول الموضوعات ، فكم من مرة أعاد لى هذا المعلم العظيم كراستى قائلاً : « أرجو أن تزيد بضع صفحات أخرى على الموضوع » ونصحنى في ذلك الوقت أن اشترى كتابه فى الأنشاء ففهمه أجود مقدمات وعبارات تصلح لسكل الأحوال . وقد اشتريته ولا يزال فى حوزتى ولستنى تركته للأسف فى مصر وكم أنا آسف لعدم استطاعتى الانتفاع به الآن .

وحضرت فى يوم الجلسة وقدمونى للدكتور برجمان وهى سيدة عجوز متوسطة القامة ذات شعر أشيب ولون ناضر ، أما عيناها فكانتا تضربان تارة إلى الزرقة وتارة إلى السمرة ، شديدة الحياء أرملة طبيب سويدي مشهور ، وأم فتاة جميلة تعنى بها كل العناية .

وكنيت قد عقدت النية على أن لا أذكر الأستاذ « بال » ولكن العالم

المتحمس كان قد تحدث مع زملائه بشأنها . وعند ما رأني أقبل على وشد على يدي
والنفت إلى رفيقيه قائلا « صديقنا هذا لا يعرف من أين نشأ ، ولا يستطيع
كذلك تفسير اسمه . أنا أقول إن عائلته نشأت في أسبانيا لأن الأسبانيين
يستخدمون « ال » في أسمائهم . وتدعى امرأتى أن منشأه جزيرة العرب » ثم زر
على عينيه وضحك قائلا :

والمصري عاجز عن إعطائنا بيانات عن ذلك فإذا نريان أيتها ؟
قال الدكتور جراهام « مبلغ عيسى أن ال أداة تعريف عند العرب وأرجح
أن الأسبان قد أخذوها عنهم » .
فأشار إليـه الأستاذ بيده « دعنا من ترجيحاتك . أنت مستشرق ، متعصب
للعربية . ما رأيك أنت أيتها الدكتورة ؟ أنت عالمة مثلى في فقه اللغة وعندك
الرأى الصواب » .

مسحت الدكتورة يدها على شعرها وقالت « أذكر أنى قرأت منذ ٣٥ عاما
مقالا في إحدى المجلات العلمية عن ال وأعتقد أن شيئا منه لا يزال عالقا بذهنى
وأن ال العربية تأخذ الحركة التى قبلها على عكس ال الأسبانية فانها لا تتغير
وعلىنا أن نسأل السيد إذا كانت ال فى اسمه تتغير أو لا » وابتسمت عيناها
ابتسامة المودة نحوى .

وعجبت للجماعة التى شرحت اسمى بينها وأنا على قيد الحياة .
« عندكم حق اسمى اسم بغض ، وكنت أفكر فى تغييره وسأستخدم مؤقتا
اسمى الأول . والآن أحب أن أعرف رأيكم فى تقريرى » .

قال الأستاذ مبتسما « لا ، لا ، اسمك جميل ، ولكن فقهاء اللغة يهتمون
بفحص الكلمات سواء كانت محلية أم أجنبية ، وردها إلى أصولها ، وقد توصلنا
بالفعل إلى شىء من هذه المناقشات - تقريرك عظيم ألا أنه كان مختصرا - حتى

أنت لم تدرك شيئا مفصلا عن بعض النقاط - انظر هنا - وأراني بعض علامات
بالقلم الأحمر ، فضحككت بين كفى .

« سيكتب الدكتور جراهام معك عقدا يتجدد كل شهر لأن حالتنا غير
مستقرة - أنا أعتقد أنه من الضروري أن نلتقي جميعا في إحدى الليالي لنخرج
بنتيجة قاطعة شافية بالنسبة لآل » .

غادرت البناء فرحا وفي الجيب المبالغ الذي قبضته من الخزنة .
وقد لقيت البروفسور شريدن أربع مرات أخرى في داره وفي كل مرة
كان الحديث يدور بيننا طول الوقت على كلمة أو مقطع منها ودعيتني كذلك
الدكتورة برجمان مرتين إلى دارها وحدثتني عن أسفارها المختلفة - ولم يدرك في
حديثها قط شيء عن فقه اللغة . وكان الدكتور جراهام هو الرجل الوحيد الذي
التقي به في المكتب كل مرة - وهو أعزب يقضي وقته فيه .

وهكذا انقسم لي الحظ مرة أخرى . ولا عجب فمجيئة الزمن تلف على الدوام
من أسفل إلى أعلى كما تلف من أعلى إلى أسفل وهي تلف بي الآن إلى أعلى
ومر شهر فبراير ومارس على أحسن حال وحل موعد سفر الأنسة
ما كسونج إلى فرنسا ولأمر ما أجلت الأمريكية سفرها شهرا آخر
وفي الثالث الأول من شهر إبريل ، قصدت الجمعية لأقدم تقريري الأسبوعي
فأخذته مني الدكتور جراهام وهز رأسه هزة الأسف وقال : « نحن مضطرون
لسوء الحال أن نغلق أبواب جمعيةنا ، ومد إلى يده بظرف مقفل وقال لي :
« هذه مكافأة صغيرة لك على عملك ، فلم أستطع النظر إليه . فقادني من يدي
إلى الخزنة وأمر الموظفة أن تدفع لي أجر تقريري الأخير فتقدمتني أربعين
ماركا لم آبه لها وخرجت من عنده لا أدري أين أضع قدمي

فتحت الظرف في الدار فوجدت به مائة مارك وهذا المبلغ عدا الأربعين

ماركا وضعتها على مكتبي دون عناية وضممت اليها ما تبقى معي من المال فكانت
بجموعة ٢٥٣ ماركا وبعد فترة صممت ، لطمت رأسي وصدغى بكفى عدة مرات
وقلت : « لاتزال أمامي فرص في الحياة لم أعالجها فلا أفكر »

واستولت على رأسي فسكرة العودة إلى الوطن عدة ليال وأذكي الفسكرة
في نفسي ان الحالة الاقتصادية في ألمانيا تسوء يوما بعد يوم كما كان قرب سفر
الآنسة ما كسونج أمرا محققا وقضيت ليلة على أحر من الجمر أفكر وأنا
لا أدري أقطع بالعودة إلى مصر أم بالبقاء في برلين ؟

ورأت الآنسة ما كسونج ما حل بي فعرضت علي أن أرحل معها إلى
باريس وأجرب حظي هناك وأغرتنى بكل المغريات فرفضت فأبرقت إلى
امريكا تطالب مدّة إقامتها في برلين نصف عام آخر للتمكّن من اللغة
الألمانية - فأجيبته إلى طلبها .

انتصار الجهل

ليس من طبعي أن أنتظر وقوع معجزة من السماء ، لأنني أعتقد أن زمن
المعجزات الأسف قد انقضى . فقد قسا أبي علي في تربيتي باليد واللسان حتى أنني
لازلت أسمع صوت أبي يرن في أذني .

« اترك الولد بالله عليك ! »

« أريد منه أن يتعلم أن يقف على قدميه . من يدرى ما سيكون عليه حظه في الحياة
« يا لله ! لقد كسرت أصبعه ماذا تريد منه ؟ »

« أريد منه أن لا ينحنى له عود في المستقبل . أريد منه أن يسير القدر »

ولا يخضع له . سيد كسره أصبحه فيما بعد بكلماتي فيحرف كيف يعتمد على نفسه . »

ومنذ ذلك التاريخ تعلمت أن أغلق على نفسي باب غرقتي كلها وقعت في ازمة من الأزمات ثم أفكر في هدوء وأقضي في الحال بما ارتأيت .

فحبست نفسي طول ضحى اليوم التالى وعالجت الأمر من جميع نواحيه وقررت بعد فشلى في احتراف الكتابة والتجارة أن احترف مهنة يدوية وقديما قالوا « صناعة في اليد أمان من الفقر » مهما يكن نوع هذه الصناعة . وقررت كذلك أن أختلط بالناس فى الداخل وأعيد اتصالاتى بالخارج فر بما استطعت الاستفادة منهم برأى أو مشورة ، إذ كيف يتيسر لهم أن يعلموا شيئا عن سوء حال طالما أنا بعيد عنهم مقاطعا لهم .

فأخذت على غير عادتي أنحدث إلى صاحبة الدار ، فقدمتنى إلى جارى فى السكن الدكتور شميغلسكى فتى بولندى أتم دراسته حديثا . وأكثرت من التردد على الأمريكية كذلك ، ثم كتبت فى الحال ثلاثة كتب إلى ثلاثة من اصدقائى فى ثلاثة بلاد مختلفة ، فى القاهرة ولندن وباريس .

وكنيت فى كل مرة أزور فيها الأنسة مكسونج أمر على مدرسة عرض الأفلام فكنت أقف فترة أمام لوحة المدرسة وأقرأ الكتابة المسطورة عليها من جديد رغم معرفتى بها . وذات يوم صعدت فى السلم عن غير قصد ودخلت المكتب وطابت صورة من برنامج التعليم فقادتنى فتاة إلى غرفة الاستقبال وقالت لى « لحظة » واختفت وعادت معها سيد تبدو عليه مخايل الذكاء يغلب على الظن أنه فى منتصف العقد الرابع فقدم لى نسخة من برنامج المدرسة ودعائى لمشاهدة الفصول . فقادنى إلى المعمل ثم إلى صالة المحاضرات فغرفة بها ما كينتان لإدارة

الفلم . وهنا ألقى على محاضرة طويلة عن مدرسته ثم سألى عن رغبتي فارتبكت ، فاستأنف الكلام .

« ربما وجدت أن مدة الدراسة طويلة . ولكن ثلاثة شهور لدراسة كل هذه العلوم ليست شيئاً يذكر . أرجو أن تفتح ص ٥ فهناك مستجد العلوم الأساسية الثلاثة التي لا بد للطالب من الامتحان فيها ، ففتحت الصفحة فوقع نظري على الآتي : -

١ . الكهرباء الصناعية .. التيارات .. الدينامو

٢ - بناء الماكينة - استخدامها الخ .

٣ - عرض الأفلام ، لفها ، ولصقها ... الخ .

فنظرت إلى عدد العلوم المطلوب دراستها مندهشاً ولم أنبس ببنت شفة واستأنف الحديث « وعداً هذا - فلدينا فصل ينتهي في ١٥ يوماً يدرس فيه الطالب يومياً ثلاث ساعات » ففعلت هذه الكلمات في نفسي فعل الكهرباء « أفى الامكان أيها السيد الدكتور أن يتعلم الطالب كل هذه العلوم في مثل هذه المدة القصيرة » .

فابتسم قائلاً « نعم أن لنا طبعاً طريقتنا وأنا أنصحك أن تدخل هذا الفصل النهاري لأن عدد المشتركين فيه محدود فتستطيع الاستفادة منه كثيراً . »

« هل تسمح لي أن أسألك عن الأجر الذي يتناوله عارض الفلم في ألمانيا ، »

« فننقل من ٣٠٠ - ٤٠٠ مارك في الشهر ، »

« هل يوجد أيضاً بينهم عمال عاطلون ؟ »

« لله الحمد - فنسبة العاطلين في هذه الطبقة صغيرة إذا قيست باليمن الأخرى ، »

« وماهى مصاريف الدراسة ؟ »

« ٨٠ ماركاً . وتبتدىء الدراسة في أوائل مايو ، »

« ٨٠ ماركاً ؟ حسناً ! سأفكر في الأمر . أشكرك ، »

وأعطاني بضع رسائل مطبوعة وشيخني إلى الباب .

وقصدت الدار بعد هذه المقابلة وقد انحنت من رأسي طول الطريق كل الأفكار إلا فكرة واحدة ، فكرة تعلم عرض الفلم حتى بلغ بي الوهم أني رأيت نفسي واقفا في آخر الشهر على الخزانة أقبض ٣٠٠ مارك وأضعها في جيبتي وتخيلاتي أدخل مطعم كينسكي مبتسما آكل وأشرب وأنفق عن سعة وكرم . وقطع عليّ تفكيري ، ونهني من حلمي صوت الدكتور شميخلسكي . عند عتبة الدار « أين كنت طول اليوم ؟ لقد سأل عنك شخص أظنه مواطنا لك . وقد وعد بالحضور غدا - وعدا ذلك فلك خطاب عند صاحبة الدار هل استلمته ؟ »

« لا ، أشكرك »

وجريت أقفز درجات السلم درجتين ثلاث درجات - وانقضضت على الكتاب انقضا الغراب « انجلترا جاوبت ! » مزقت الغلاف وقطعت معه جزءا من الكتاب .

« آسفون لما آلت اليه حالك ، هكذا كان نصيب عظماء الرجال أنتم رجل عظيم بلا شك ، كافح حتى النهاية ، النصر مؤكدا لك . . . »

« رجل عظيم ها ! ها ! ها ! - أحدث لقب - أفي الطاقة استخدام هذا اللقب ؟ أنا لا أطمع في شهرة . أنا أريد عملا فقط . مثل هذه التهربات كنت في الواقع أنتظرها . وإمكنني سأسبق طريق بنفسى . ولقد وجدت الطريق بالفعل » وفي الصباح دقت صاحبة الدار على الباب : « سيد يريد أن يتحدث إليك » « أرجو أن يتفضل . »

فدخل رجل عملاق أسمر اللون يتكلم العربية بلمهجة أهل المغرب « السلام عليكم ورحمة الله اسمي نصر بن ابراهيم من الجزائر . »

« لى الشرف ، تفضل واجلس ياسيد نصر »

« كيف حالك ؟ »

« الحمد لله بخير ، أشكرك »

فترة صمت .

ثم يبدأ الحديث : « أعطاني بعضهم عنوانك وقال لى أنك من مصر ، وأنت عاطل لاتجد عملا وعندى فرقة تمثيل تشتغل فى الصيف فى لونا بارك ، وفى الشتاء تنقل فى المديرىات وفى الممالك الأخرى ، وظننت أنى قد أستطيع مساعدتك . فأنت أيضا من الشرق مثلنا ، ومسلم غريب بين هؤلاء الكفار . »

فنهضت من كرسى واقفا من شدة الفرح « أشكرك ، لك تصنع بذلك جميلا . »

فترة صمت طويلة ، يحدق نصر بن ابراهيم فيها إلى حدائه ، وينبش بعصاه فى البساط دون أن يرفع نظره الى ، ثم يستأنف الحديث مستفهما .
« أتا كل نار ؟ »

« ماذا ؟ »

« وماذا تقول فى الزجاج ؟ »

« نار !!! - زجاج !!! »

« حسبت أنك تستطيع ، ذلك فثالث كل ثلاثة عندنا يعرف هذا . وفى هذه الحالة كنت أستطيع أن اقدم لك عملا فى الحال . »

« آسف ياسيد نصر بن ابراهيم . لست حاويا . أنا صحفي وأديب »

« ها ها ها اواسكنك لاتستطيع فى هذه الايام أن تسكب قرشا

بصحافتك وأدبك ، وأنت بدون شك فقير . »

صدق الرجل ، صحيح كل ما قال ، وأنا آسف لأنى لم أتعلم أكل النار أو الزجاج .

« أحتاج إلى زمن طويل لتعلم هذه المهنة الجديدة ؟ »
فابتسم قائلاً « في سنك لن يكون . كنت أحب من كل قلبي مساعدتك ،
ولكني لا حاجة لي بك . »
« ولكن ربما كان لديك عمل آخر لي ، ففي استطاعتي مثلاً أن أجلس
على الخزانة . »

فضرب الرجل على جيب صدره ضاحكاً « خزانة هذه خزانتي ، ليس لي
ثقة في إنسان ، سلام عليكم . سنتقابل مرة أخرى ،
وبقيت طول اليوم أنحدث إلى نفسي بصوت عال . طالما لا أستطيع أكل
النار والزجاج ، فلا حاجة لهم بي . فذهبت إلى الدكتور شميـجلـسكى وزرت
الآنسة ماكسونج وستيلكا وزوجه وسألتهن إذا كانوا يأكلون الزجاج أو
النار فضحكوا جميعهم مني . ترى لماذا لم يعلمني أبى ذلك . نصر بن ابراهيم يقول
أن ثالث ثلاثة في بلاده يعرفه . لقد كان في طاقة أبى أن يجعل مني آكل نار
أو راقصا على الحبل أو راكب خيل - - سامحه الله - - لم يكن في طاقته أن يتنبأ
بما عساه أن يكون . ونظرت إلى خنصرى وقلت ، لا يحق لي أن أستسلم
للقضاء ، على أن أعتمد على نفسي .

وبعد أيام قلائل جاءني كتاب من باريس -- آهها -- باريس تجاوب :
« كتبنا إلى بعض أصدقائنا في برلين بشأنك فصبوا -- كافح -- وختم الكتاب
بالعبارة الآتية : كنا نتمنى من صميم قلوبنا أن نتمكن من تقديم مساعدة مادية
لصديق مثلك ولكننا أنفسنا واقعون في مصاعب مالية تجعلنا مضطرين للتفكير فيما أولاً ،
أنا لم أطلب منهم مساعدة مالية ، ولكن ربما كتبوا هذا من باب المجاملة ،
على أية حال فإن مركزى يفضل مركز هذا الرجل المشهور . فهو مدين ، أما أنا
فلا يديننى أحد بمليم . بل لا زلت أملك مالا ، ولا يزال هناك رجاء فقد كتب

إلى بعض أصدقائه في برلين بشأنى اصبر وصابر ... هذا واجبي على أية حال
أما القاهرة فلم تكن بالرد على .

مهدور الدم

أعود إلى الوطن ؟ أبقى في برلين مدة أخرى ؟ أتعلم الفلم ؟ لا أتعلمه ؟ إذا كان
لكل قصة نهاية ، ولكل نهاية قصة ، فإن هذا لا ينطبق على حالى . فالظاهر أن
قصتى لا نهاية لها . فالمتاعب التى لقيتها فى مصر قبل ارتحالى عنها ، والتى تبعتنى
فى برلين يظهر أنها ليست بالكافية . فقد سدت جميع الأبواب أمامى ، وأبى
النحس إلا أن يلازمنى ، وعلى الرغم من ذلك يطالبنى الناس بالصبر ، ويأمرنى
الدين أن أحيأ . إن من الهين على صديق يعيش فى نعيم ، من لا يستطيعون أن
يلبسوا معاطفهم أو أحذيتهم دون مساعدة خادم ، أن يطلب إلى أن أكافح .
ومن الهين على من فى مصر من لا تشعر معهم بالجوع ، لا ولا من برداً ورباً
جلودهم أن يأمرنى بالصبر على امتحان الله لى ، سمعنا وأطعنا . ولكنكم لم تقولوا
أى ضرب من الكفاح تعنون ؟ كفاح فى صحراء ، وأى صبر هذا الذى
تمشدقون به ؟ أصبر بلا نهاية ؟ لم أطلب إلى أولئك الناس الذين طلبوا إلى أن
أصبر وأكافح أن يحتملوا عنى بعض أعباء الحياة ، ولو أن واجب الصداقة
وأوامر الدين الخفيف تطلب ذلك ، غير أنى رجوت منهم أن يساعدونى برأيهم
فى وحشتى . فيدلونى على نوع من السلاح الذى يجب أن أحمله ، ويعيّنوا لى
العدو الذى أقاتله . فأنتى لرجل له معدة كمعدهم تطلب الطعام فى مواعيد منظمة ،
وله جلد كجلودهم لا بد له من حماية ، أن يريدوه على الصبر . لا ، لا ، سنسمع
منهم ، وإن نطيعهم . كل هذا سنخف ! هؤلاء الناس انما يهزأون منى . ان كنز

صبرى الغنى قد نضب ، ولم يبق فى قوس التجلد منزع ، ولا فى رقعته مرقع .
فلأترك برلين للبرلينيين وللأجانب من أكلة النار والزجاج . أنا أطلب من
برلين المستحيل ؛ ولأسكن إلى أين المفر ؟ إلى آكلى لحوم البشر ؟ إلى نيام نيام ؟
إلى مملكة البابا ؟ . أنا لا أطلب إلا عملاً ، أحصل من ورائه على سقف فوق راسي
وخبز ، وكتاب . أصحاب مطامع أنا ؟ لا فلم يبق أمامي إلا الرحيل أو انتظار
وقوع معجزة .

أما انتظار وقوع معجزة فلا ، فهذا ليس من طبعي ، إلى الآنسة ما كسونج
لأدرس معها المسألة وسنجد حلاً . وفى اليوم التالى لقيت الأمريكية وقتلت
الموضوع معها بحثاً من جميع نواحيه ، واتفق رأينا على أن ترك ألمانيا الآن
ضرب من الحماقة ، فعدد العاطلين فى كل مكان آخذ فى الازدياد ، فوق ذلك
ساجد نفسى فى أرض جديدة ، هضر اليدين ، أجهل لغتها ، غريباً بين أهلها . وأن
رحلة كهذه هى الانتحار بعينه . وإذا شاء الإنسان أن يلتحر فعليه أن يتخير
أخف أنواع الانتحار . أما فى برلين فحالى يختلف عن ذلك فأنا أعرف المدينة
وأجيد لغتها إلى حد ما ، ولى فيها بعض معارف ، ولا يزال بها أبواب لم أقرعها
بعد . . . ثم أمامى مدرسة الفلم ، وفى استطاعتى أن ألصق إعلاناً عن دروس
خصوصية على سبورة الجامعة ، وأن أكتب كتاباً ، لا تزال توجد عدة
احتمالات لم أعالجها . ثم أظهرت استعدادها لمشاركتى متاعبى بل مساعدتى إلى
آخر نفس .

لا ، لا أريد أن أبقى يوماً فى برلين ، وإذا كنت صادقة فى ودك لى ،
لا تشينى لحظة عن الارتحال ، وفسكرى معى إلى أى بلد أقصد .
وانقضى عصر اليوم فى أخذ ورد وأخيراً اتفقنا على أن أتريث بضعة أيام
حتى نتدبر الأمر قبل الأقدام

وانطلقت من دارها مسرعا في الطريق دون غاية حتى أنهم سكني السير وأخيرا
خاطبت نفسي .

« ليس غريب في بلد كبير أن يطمع في يد تجفف دموعه ، أو صوت
رقيق يخفف عنه آلامه ، أو قلب يشاركه دقات قلبه . أنا غريب في برلين ،
غريب في لغتي ، غريب في عاداتي ، غريب في ثقافتني ، وغريب في ديني ، ليس لدى
أحد أستطيع أن أعتد عليه ، وليس لي غير غرفة الجأ إليها ، وأغلق بابها عليّ ،
ومكتب أجلس إليه . أنا منهوك ، سأرقد الليلة على الأريكة ، وأدع فلم حياتي
الماضية والحاضرة يمر أمامي لأتبين حقيقة موقفي سامح الله برلين ، إذا كانت
برلين قاسية عليّ ، فأنا لست برلينيا ، وليس لي حقوق على المدينة . وعلى الرغم
من ذلك فسأظل أحب برلين وأحترمها . ألم أعش في أيام الأخيرة في وطني
بين أصدقائي ومعارفي غريبا ، ومع ذلك فلم يعرض البعض والبعض والحمد لله لنحو
مواطني ، ولو أن ظلم الأهل والصاحب أمر وآلم على النفس من ظلم الغريب .
وصلت غرفتي ، وعالجت أن أخلع ثيابي فرأيتني في المرأة ولم أكن قد
نظرت إلى صورتني فيها منذ أيام فأذكرت صورتني . وجهه متغير ذاك الذي
أراه في المرأة ، قد اصفرت بشرته ، وشابت سوائفه ، ودب البياض في رأسه ،
هيكلي في ثياب بالية . اهنا هو أنا ؟ . لاشك ، فهذه هي ثيابي التي جئت بها من
مصر ، يا لله في سمائه لست غريبا في برلين ومصر ، بل أنا غريب في ثيابي
رقدت على الأريكة ، وبقيت مدة من الزمن لا أتحرك ، وأخيرا أحسست
برغبتي القوية في النوم ، فانتقلت إلى فراشي ونمت نوماً عميقاً لم أذوقه منذ
زمن طويل .

وفي صباح اليوم التالي ورد إليّ كتاب من مصر ، ففجئت لحفته ووزنته
في يدي : « لعل المرسل نسي أن يضع الكتاب في الظرف . فتحته فوجدت به

قصاصة من جريدة الأهرام الصادرة في منتصف ذلك الشهر ليس عليها أى تعليق
فقرأت فيها نص المرسوم الملكى الذى صدر بتجريدى من جنسيتى فلم أحس فى
أول الأمر بأى ألم ، أو أية مضايقة بالمرة ، بل هزأت من جبن المرسل الذى
لم يخاطر حتى بكتابة اسمه ، ومرت بى ساعة كاملة لم يتغير فيها خراجى . ترى
كانت كدأس أحزاني مترعة حتى أنها لم تقسع لمثل هذا الخبر المؤلم ؟ أو كانت
الهزيمة قوية حتى أنها سلبتنى إحساسى . على أية حال تبين لى فيما بعد أن هذا
المرسوم كان كالسهم الذى أصاب قلبى . وبقي ساكنا به ، وأنى عاجز عن انتزاعه .
وقصدت فى المساء صديقتى فى الموعد المضروب وبادرتها قائلاً لقد هدر دى .
الآن يستطيع كل إنسان أن يطاردنى . كما أنى كنت أحس هذا الاحساس منذ زمن ،
فاهتر بدن السيدة ، وماتت الكلمات على شفيتها .

وعدت إلى دارى وحديث جارى الدكتور عن خبرى فأخذيدي من ثورتى .
« لا تخف ولا تحزن ، وستجد لك مخرجاً قريباً والآن ستحصر فكرك فى
العمل ، ولا بد أنك واجده ، إذ لم يعد فكرك موزعاً بين السفر والأقامة .
فسيأبى أى قنصل التأشير لك بالسفر بعد تجريدك من جنسيتك ، وفى برلين
يوجد ألوف مثلك ممن لا جنسية لهم من مختلف بلاد الله يكسبون عيشهم ،
فلم لا تبحث عن عمل مستديم ؟ »

وبهذه المناسبة لقد سألت عنك اليوم السيد . شتين ألك معرفة به وثيقة ؟
« ومن عسى أن يكون السيد شتين ؟ »
« السيد شتين ! »

قلت فى حدة : « وهل تظن فى الطاقة أن أجد عملاً ؟ »
فردّ على فى أدب ورقة « بدون شك . وأنا على استعداد أن أشاطرك آخر
مارك معى ، وأن أبذل كل ما أستطيعه من أجلك . قل أية صلة لك بالسيد شتين

أعني طبعاً الفنان شتين الشهير .

« لا أعرف إلا اسمه من الصحف والمعارض ، ولم أره قط . أهو الذى سأل عني ، وماذا قال ؟ »

« إنه ينتظر منك تليفوناً غداً . »

خرجت من عند الدكتور شيجالسكى ثائراً أحدث نفسي « ليت الذين اتهموني وحاكموني في غيابي سمعوا دفاعي » وأحسست ساعة بكراهية نحو الناس جميعاً . والحق أقول أن هذه الساعة نقطة عار في صحيفتي كم وددت لو لم تسكن

أردت أن أتحقق صحة هذا النبأ وأعرف الأسباب التى بنى عليها هذا المرسوم فقصدت القنصلية المصرية ، فعلمت أنهم لا يدرون شيئاً من الأمر أكثر مما قرأته في الأهرام

قلت: وإذا لى رجاء عندكم . أن تسكتبوا لاولى الأمر أنى على استعداد لتسليم نفسي ، اذا كان هناك أى اتهام ضدى ،

ولم يمض يومان على زيارتي للقنصلية المصرية حتى دق على بابي أحد رجال البوليس الألمانى ، وطلب منى تسليم جواز سفرى المصرى وأعطانى وصلاً بالاستلام .

وقصدت فى اليوم التالى محافظة برلين لأسأل عن السبب فقبل أنها مجرد إجراءات تتخذ من وقت لآخر مع الأجانب لفحص جوازاتهم وأخذت أتردد على المحافظة للسؤال عما تم فى جواز سفرى . وأخيراً قال لى الموظف المختص :

« لقد سمجبت حكومتك جنسيتك وطلبت منا تسليم جواز سفرك وأنت من

الآن لاجنسية لك . وعليك أن تحضر لنا صورتين لتعطيك تذكرة شخصية
كالتى يحملها من لاجنسية له . تجددتها من هنا مرة كل عام وتؤشر عليها كذلك
من قلم الجوازات الألماني مرة كل عام للتصريح لك بالأقامة فى بلاد الرايش .
واحتججت على ذلك . فلم يقد احتجاجى ، فرضت الأمر الواقع . ومنذ
ذلك الحين وأنا أحمل تذكرة التشردهذه ، أو تذكرة الدفن كما كنت أسميها

فى مقعد الدراسة

عالت الرحيل من ألمانيا إلى أى بلد فى أوربا فأبى على ذلك قناصل
الدول جميعا . فلم يبق إلا الاعتماد على النفس ومتابعة الكفاح فى ألمانيا حتى
يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وقصدت مدرسة الفلم فى الاسبوع الأول من شهر مايو وكان لايزال معى
من النقود مايسكفينى لدفع مصاريف المدرسة والحياة شهرين مع الاقتصاد
وطالبت مقابلة المدير .

ولقد فسكت فى الأمر ورأيت ان أزور الفصل النهارى . واسكنى للأسف
لا أستطيع دفع ثمانين ماركا . وأقضى ما أستطيع دفعه للأسف خمسون ماركا .
أنا أعلم أن ثمانين ماركا لمثل هذا الفصل ليست بالشىء الكثير واسكنى للأسف
فى حالة عجز لأن عملتنا قد انحطت كثيرا . وربما استطعت أن أقدم لك خدمة
تذكر فى المستقبل ،

« آسف ليس لدينامساومة . وإذا شئت أريتك ايصالات الطلبة الآخرين ،

« نعم أنا مصدقك . لعلك تستطيع عمل استثناء معى ،

فصمت لحظة وأمسك ورقة بيده وأخذ يحسب ثم رفع رأسه وقال .

« سأصنع معك جيلا ، وأقبلك عندي نظير ستين ماركا . وهذه هي المرة الأولى في حياة مدرستي . لا تقل شيئا عن ذلك لأحد . على أن تدفع في الحال المبلغ .
فالفصل الدراسي يبدأ غدا »

« أشكرك هذه هي الستون ماركا »

ورقصت من الفرح على السلم وزرت الأنسة ما كسونج في المساء واحتفلنا بهذا النصر واخذنا طول الوقت نضع التصميمات المستقبل السعيد وكما كانت صبوراً حتى فلم تقاطعني قط بل كانت تظهر اهتمامها وموافقتها بأيماءة من رأسها أو كلمة تشجيع .

وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ، كنت أجلس بين ثلاثة عمال في صالة المحاضرات ننتظر المعلم وجاء بعد ساعة وقدم نفسه لنا وكان رجلاً قصير القامة ذابل الوجه ، أخفت ياقة قميصه ياقة سترته وتطاوت عليها كثيراً كما كانت سترته عتيقة شديدة اللعان وكانت أصابعه شديدة الاصفرار مما يدل دلالة واضحة على أنه مدخن كبير . وانه رقّ هذه العادة فقد كانت أولى كلماته لنا « تستطيعون أن تدخلوا في أثناء الدرس » .

أعطى لنا ورقة كتبنا عليها اسماءنا وعنواناتنا وقررها من عينيه الضعيفتين وقرأ الأسماء بصوت عال ولما جاء إلى اسمي قال :

« فلنبدأ بامتحان المصري »

« هل يوجد عندكم دور للسينما في مصر ؟ »

« نعم »

« طبعاً تريد أن تفتح داراً للسينما ؟ »

« نعم ! »

« أستطيع أن أجد لي عملاً عندكم في مصر ؟ »

ففرغت عند سماعي هذه الكلمات وقلت في نفسي :

« كيف أفكر في إيجاد عمل لي في ألمانيا إذا كان المعلم يبحث عن عمل له في مصر . » ووقف الجواب في حلقى فرأى حيرتى وارتباكى فقال لي خلاصتى بما أنا فيه : « سنتكلم في الموضوع في فرصة أخرى - أتعرف الحساب . »

« أى نعم ! »

« حسناً - إذن سيسهل كل شيء ، ثم أخذ يسأل الآخرين .

ورأى لا أَدخُن في أثناء الدرس فقدم لي سيجارة فقلت له :

« أشكرك ياسيدى المعلم أنا أَدخُن الغليون ،

تستطيع أن تدخنه هنا أيضاً . وسأحضر معى غليونى غدا لأجرب

دخانك . »

وفي اليوم السادس من شهر مايو جاءنى كتاب صادر من برلين حاولت معرفة صاحبه من الخط الخارجى فلم أفصح . وكان الكتاب مختصراً العبارة مكتوباً بخط جميل ، وهذا نصه : « صديقك فى باريس كتب لنا بشألك إنه ليسرنى أن

تزورنى فى دارى بعد غد فى الساعة الخامسة لشرب الشاى معاً - تحياتى »

المخلص « شتين »

لقد صدقت باريس وعدّها - آه هذا هو الرسام الشهير « شتين » الذى طلبنى فى التليفون وأهملت الاتصال به . لقد قرأت فى الصحف عن معارضه فى لندن وباريس . هذا الرجل لاشك يستطيع أن يساعدنى .

وذهبت إلى ستديو شتين فى الموعد المحدود وهو قائم فى غرب المدينة فى بيت هادىء تحوطه حديقة غناء . يمر الداخل بدهاليز قصير ، فيدخل منه إلى غرفة

فمريحة مغطاة حيطانها بمختلف الصور . وتفصل ستارة سميكة من الحريز بين الاستديو وبين غرفة الاستقبال البديعة الممتعة . يتألف أثاثها من أريكة وكراسي واطئة ومائتين مستديرتين وتحلى حيطانها كذلك بالصور الجميلة . أجلسنى الرسام إلى مكتبه على كرسي مزخرف وطلب إلى أن أكتب اسمى فى دفتر زواره المشهورين من المعجبين بفنه .

شتين رجل جميل الطلعة يناهز الستين . واسكن الأيام لم تستطع التغلب على روحه ومرحه فلم تترك أثراً على بشرة وجهه الملساء ، فكان لمعان بصره وحركاته الحية ويداه الثابتتان واطفه - كل هذا من صفات الشباب مما لا يجتمع لأحد فى هذه السن .

حيانى تحية الصديق القديم وتحديث معنى طويلاً . وحدثته بحديثى من يوم سفرى إلى اليوم ، ولم أخف عنه شيئاً غير مدرسة الفلم ، رسألتنى عن مشروعاتى المستقبلية . فأظهرت له حيرتى فقال لى أن له اختاً شقيقة تحترف الكتابة وإن اسمها معروف بين الأدباء . وهى الآن على سفر فى السويد للنرويج عن النفس . ومتى عادت ربما استطاعت أن تقدم لى خدمة فى ناحية الكتابة ، وأنه سيكتب لى قريباً لملتقى مرة أخرى فاستأذنته شاكرأ فى الإنصراف ، فدار معى دورة فى الاستديو وودعنى إلى الباب وخرجت من عنده وقد تجددت الآمال فى نفسى .

وقضيت عشرة أيام فى غرفة المحاضرات وخمسة أيام للتدريس عملياً فكانت الأيام الخمسة الأخيرة العذاب الحق لمعلمنا . فقد انتقلنا إلى غرفة صغيرة حيث الماكينات والأفلام ولوائح البوليس التى لا بد لعارض الفلم من الإلمام بها والتى يجدها الواحد معلقة فى كل غرف ماكينات السينما ويا فظة مكتوب عليها ممنوع التدخين منعاً باتاً ، فكثيراً ما قطع المدرس الدرس ، وكثيراً ما كان يجرى إلى

«الطاقة» الموضوعة على الفرن القائم في إحدى زوايا صالة المحاضرات ليأخذ
نفساً أو نفسين من سيجارته ثم يعود إلى عمله .

وانتهت الدراسة النظرية والعملية . وقادنا المعلم إلى مكتب المدير
لنتسلم شهادتنا .

فسأله : « كيف حال تلاميذك ؟ »

« على مايرام يا جناب المدير »

« والمصرى ؟ »

« آه ! انه متين في الحساب »

« حسنا ! » ، وسحب درج مكتبته وأعطى لكل واحد منا شهادته . وكانت
عبارة عن ورقة نمرأه منسوخة على الآلة السكاتية نسخاً رديئاً مما لا يكاد يصدق
مصرى أنها شهادة ، فكانت الحروف غير واضحة ، وليس بها أى رسوم أو
تزيين . لو كان بها فقط صورة طائر أو زهرة ربما كان فى طاقى ان أنخر بها
فى مصر لو قدرت لى العودة إليها يوماً ما ولكن هكذا كانت الشهادة . .

« تصنع معى جميلاً أيها السيد المدير لو أعطيتنى نسخة أخرى فحروف هذه
النسخة غير واضحة » فابتسم الرجل وبحث لى عن نسخة صالحة . واستأنفت
الحديث « بودى أن أتحدث اليك حديثاً خاصاً » .

« بكل سرور تعال غداً إلى المكتب بين التاسعة والعاشره فأنا
مشغول الآن » ،

وكم كان اغتباطى شديداً بذيـل هذه الشهادة ، وزرت فى المساء معارفى
وأوصلت اليهم هذا النبأ السار ودعوتهم مقدماً لزيارة الأفلام التى سأديرها .
مع السلامة أيتها السكتابة لقد أجمعتنى وجعلت منى متشرداً . ومن قال أنى ملزم
أن أعزى أذهان الناس بقلبى وأن أروح عنهم ، اذا هم لم يرغبوا فى دفع شىء نظير ذلك .

ولكن ماذا عسى يسكون مهير قلى . شىء مثل هذا لا يصح تعطيمه . أهـ -
سأقبره فى زاوية من زوايا حقيبتى . وأبعثه من لحده مرة فى مثل هذا اليوم من
كل عام لأؤرخ به هذا الحدث فى مذكراتى . لعنة الله على الوقت الذى أضاعته
معك . وبارك الله فى العصر الجديد عصر العمل اليدوى . وإن أهديك للآنسة
ما كسونج حذر أن تشأماها فر بما فقدت وظيفتها بسببك . لقد صممت على قبرك
وفى منتصف العاشرة من اليوم التالى كنت جالسا فى مكتب مدير السينا
وطلبت اليه أن يعاوننى على إيجاد عمل لى فى إحدى دور السينا لأنى غريب
وفى حاجة للعمل وليس لى وسيل

« تريد أن تشتغل فى برلين فى عام ١٩٣٢ - هذا مستحيل - أولا يجب
عليك الحصول على إذن للعمل . بعدها يجب عليك أن تشتغل ستة أشهر فى
إحدى دور السينا كصبي . ثم عليك بعد ذلك أن تؤدى امتحانا أمام البواليس
فى العلوم النظرية والعملية ، وكأجنى يلزمك بعد كل هذا أن تحصل على
ترخيص للعمل من إدارة العمل وأشك فى إعطائه لك . »

« ربما استطعت أن توصى بى كصبي حتى أتمكن من التمرين المدة
المطلوبة للدخول فى الامتحان لأستطيع أن أعالج هذه المهنة فى بلد آخر . »

« وهذا يصعب عمله كذلك . فالهسيان عندنا لا يعملون بالمجان بل تدفع لهم
أجور ، ولا بد من الحصول على تصريح بذلك من مصلحة العمل »

فأسودت الدنيا فى عيني ودارت الأرض تحت قدمى لا كما تعلمنا فى دروس
الجغرافيا بل أحسستما تدور بالفعل فرأيت القطب الشمالى والقطب الجنوبى
ورأيتنى نفسى فى صحراء القارة المظلمة وحدى وسمعتنى أقول لنفسى « إذن
لا يوجد مخرج لى . »

غادرت الغرفة دون أن أقول كلمة وتعثرت ثلاث أربع مرات في السلم واصطدمت أكثر من مرة بالنازلين والصاعدين .

كنت أعمى ، أصم ، أبكم ، ولما بلغت الباب أحسست يدا على كتفي تهزني شمالا ويمينا وكانت يد سكرتيرة المدير - قالت وقد أشرق وجهها : « جريت ورامك في السلم أناديك ولـسـكنـك لم تسمعني »

« أنت ناديتني - أرجو معذرة - تراني نسيت شيئاً ؟ »

« لا - ولكن عند المدير خبر طيب لك . »

« وكيف كان ذلك ؟ - لقد كنت عنده منذ هنيئة ! »

« أسرع واصعد إليه . »

المدير : « يظهر أنك رجل محظوظ ! في اللحظة التي تركت فيها غرفتي دق لي مدير سينما (السعادة في نيوكلن) التليفون وطلب إليّ أن أرسل إليه مساعدا يستطيع العمل ابتداء من اليوم . ففكرت فيك في الحال واليك العنوان أرجو أن تذهب إليه عصر اليوم . جرب حظك . »

« ألف شكر وشكر » - وشددت على يده علامة الامتنان الصادر من أعماق قلبي .

عامل أسود

أترك للقارىء تقدير فرحى عند سماع هذا النبأ

بلغت أول حى (نيوكلن) في منتصف الرابعة ، وبعد أن سرت فيه بضعة أمتار ناولنى أحد الصبية اعلانا قرأت فيه « تعرض سينما السعادة رواية (بن هور) ابتداء من يوم الجمعة » قطعة قديمة لا بأس بها . لا بد وأن تكون سينما كبيرة

ولا بد أن يكون جمهورها عظيماً. إنها حقاً مساعدة كبرى أن أعمل في سينما السعادة. فلنحسب عارض الفلم في هذه الدار يتناول ٣٠٠ مارك ومساعدته على الأقل ٢٠٠ ، لا ، هذا ليس صحيحاً. يجب على الواحد أن يفترض دائماً أسوأ الفروض ، وعليه ، عارض الفيلم يتناول ٢٠٠ مارك فقط ومساعدته ١٥٠ ، ففي بلاد متمدنة كالمانيا لا يمكن أن يتناول العامل أقل من ذلك. مبلغ جيسل . وبدون شك إذا ما لاحظ المدير اجتهدى وتقديرى للمساهمة فمحقق أنه سين يدمرتي

وفجأة أجد نفسى أمام رجل يوزع اعلانات على مدخل السينما ، وهو يحاول أن يمس اعلاناً في يدي . فخدجته بنظرة فاحصة من قمة رأسه إلى قدمه - رجل غليظ الجسم ، ضخم المؤخرة ، قصير القامة ، يرتدى ملابس قذرة . مؤكداً أن المسكين لا يتناول في اليوم أكثر من ثلاثة ماركات ، ومن يدرى إذا كان رب عائلة ، فإن منظره ليخبر عن شيء من ذلك . سأساعد كل زملائي . وبعد هذه التأملات التفت إليه وسألته : « أين يوجد السيد المدير لأتحدث إليه ؟ »

فاعتذلت قائمه ، وأنزل يده بالاعانات
« أنا هو »

فأسرعت ورفعت قبعتي وقلت فى ادب : « جئت بناء على توصية مدير مدرسة السينما بشارع فردرش لأشتغل عندكم كمساعد »

« نعم ، نعم ، لقد دقت له التليفون اليوم . من أين عرفته ؟ وماذا تعرف ؟ »
لقد درست فى مدرسته ، وأستطيع أن أقدم لك شهادتى ، وعند ذلك نشرت له أوراقى أمام أنفه .

فدق فى « المدير العجوز القدر من رأسى إلى قدمى ، فقرأ آيات الحاجة للعمل مرسومة على وجهى .

« ولسكننا لا نريد مساعداً بالمعنى المفهوم . نحن نريد فقط شخصاً يقف تحت يد عارض الفلم ، وعدا ذلك فنحن لا ندفع أكثر من ماركين . »

أهها يريد الثعلب الحديث عاملا أسود ، عاملا غير مرخص . ولم لا يقول
هذا في مصراحة وجلاء . فكثرت في الأمر لحظة ، فوجدت انى مضطر القبول
عرضه ، فربما استطعت أن أقضى عنده الأشهر الستة اللازمة للتمرين .
« اتفقنا ! »

فدعا أحد الصبية وقال له أرم المكان الذى يخلع فيه ملابسه . وبعد بضع
دقائق وجدتني فى غرفة الماكينة . وكان عارض الفلم فتى فى منتصف العقد الثالث
خشن الأخلاق ، متعجرفا .

« إنت ! ما اسمك ؟ أين تعلمت ؟ »

« . . . ، وتعلمت فى مدرسة السيما . »

« مدرسة السيما ؟ » وهن كتفيه استهزاء « الذين يتعلمون فى مدرسة السيما لا
يفهمون شيئا ، أنا لا أومن إلا بالتمرين والتجربة . سنرى ، خذ فلم الثقافة وافه . »
فتناولت العجلة . وافقت الشريط ، ووضعتها فى خانتها . وقارب الفصل
الأول من بن هور أن ينتهى فأعددت لزيملى الفصل الثانى ليضعه فى الماكينة
الثانية ، ثم وقفت إلى جانب الأولى . ولما انتهى عرض الفصل أخرجت الشريط
من الماكينة الأولى وأعددت لفه ، وكان بجوارى كرسى خشبى شاغر فجلست
عليه . فسمعت صوتا أجش خلفى « لا جلوس فى ساعة العمل ، »

فنهضت فى الحال واقفا : « معذرة ، كنت أجهل هذا . ومع ذلك فليس
لدى الآن ما أصنعه . »

« انزل وأحضرى ماء . أريد أن أغسل يدي . »

ولما عدت كان على أن أصب الماء على يديه . وفكر قليلا ثم قال لى .
« لست بالرجل المطلوب . أنت ثقيل الحركة . أسرع وناولنى المنشفة ،
فقدمتها اليه معذرا : « أحب أن أقول لك شيئا أيها الزميل المحترم ، »

« كن صبوراً حتى ، وساتعلم كل شيء . وأعدك أن أبذل جهدي لأرضائك . »
فلم يلتفت إلى الفتى ولا قال شيئاً . وبعد قليل نظر إلى ساعته وقال :
« الجوحطار ، افتح الباب . »

وجاءت فترة الاستراحة . فوقف أمام الباب وأخذ يغازل فتاة تنظر من
شباك مقابل . وفجأة نظر وراءه وسأل :
« هل تعرف أن تضع الفيلم فى الماكينة ؟ »
« نعم ! »

« جرب . سنرى . »
فوضعت الفيلم طبقاً لما تعلمته . فتقدم وفحصه . ولم يجد غلطة فيما صنعت .
ثم قال بصوت خشن :
« اسمع . إياك أن تدع الباب مفتوحاً فى أثناء دوران الماكينة . أسرع وأغلقه
ما أجملك بالوائى ! »
والعجيب أنه هو الذى فتحه ليغازل حبيبته . ولم تكن الماكينة قد
أبتدأت تدور بعد !

وقضيت الوقت كله فى استخراج الفيلم من الماكينة وإعادة لفه ثم وضعه فى
خاتمه ، وتركيب الذى يليه ، وهكذا دواليك حتى منتصف الساعة الثانية عشرة
دون أن يجلس لحظة واحدة . وفى النهاية كان على أن أصب الماء على يديه .
ولما كنت لا أدري أين أغسل يدي قبل مغادرة المكان سألته فى أدب عن مكان
المغسل فأشار إلى الماء القدر الذى غسل به يديه . ثم كان على أن أرافقه حتى
باب داره . ولما سلمت عليه عند افتراقنا قال لى مهددا :
« لا تنس غدا أن تكون هناك مبكراً لتنظيف الغرفة . »

وعدت إلى دارى فبلغتها جئة هائدة ادم تعودى على الوقوف طول تلك

المدة واستيقظت في الساعة العاشرة صباحاً فأحسست ألماً في ذراعي من طول التدوير ، وتعباً في قدمي من طول الوقوف . وكأن جسمي ركب من جزأين موجوعين يؤلمانني كل الألم . ولم تسكن صاحبة الدار موجودة في الدار في هذا الوقت فدخلت المطبخ لأهني لي فنجانا من الشاي فوجدت الدكتور شمي جلوسكي يصنع لنفسه شاياً ، فلم يكن قد تناول طعام الفطور بعد ، فشاركته فيه . ونزلت إلى الشارع لأقوم بحولة صغيرة . ووقفت عند ناصية شارع تونسن لا أقطع بشيء ، وخطر لي أن المشي ضرب من الجنون . فاشتريت بعض الطعام . وأخذت طريقاً إلى الدار . وهناك أعددت لي طعاماً لأخذه معي . وانفقت في ورقة كما يصنع العمال هناك . . .

نظفت المدخل وغرفت الماكينة ، وركبت الفيلم الثقافى وبقيت بجانب الماكينة واقفاً ، كما قال لي زميلي . وجاء بعد قليل . ولم يتكلم معي ولا كلمة واحسدة طول الوقت . ولما جاءت فترة الاستراحة ناداني في خشونة : « افتح الباب » وصنع ما صنعه أمس فوقف يغازل الفتاة وهكذا انقضى يوم مثل سابقه .

وفي اليوم الرابع كنت مقتولاً . واضطرت طول الوقت أن أستند إلى الحائط حتى لا أسقط . واهتزت يداي وأنا أدير الفيلم من الضعف . ولم أستطع أن أستجمع رأسي .

« ألم أقل لك أن تلاحظ أيها الغر فتحت الباب بمجرد ما تبتدىء الاستراحة ؟ »

« معذرة ، فأني أحس اليوم ضعفاً في جسمي ، ولم ألحظ ذلك من قبل ،

ولما كان غزله لا يهمني ، وكان رأسي ثقيلاً ، لم أهتم بما يجري حولي وبدأ لي فقط من كل ما دار بينهما أنهما غاضبان معا .

وعاد إلى الغرفة وانتهت الاستراحة ، وأراد أن يسرع في إدارة الماكينة .

وكنيت نسيت أن أركب الفيلم . فتصاعد غضبه إلى رأسه وسب ولعن . فأسرعت إلى الرف . وأخرجت أحد الأفلام . وركبته على عجل . ولكن عارض الفيلم لم يكده يدبر الماكينة حتى لاحظت خطأى وأنى وضعت فلما مكان الآخر . فقد ركبت الفصل السادس من هور فصرخت .

« قف ! قف ! هذا خطأ ! ، واشتغلت بتغيير الفيلم فلم أسمع شيئاً من سبابه . ولما انتهيت من عملي « التفت إلى غاضباً : « لا بد أن تفتح عينيك ! » وأدار الماكينة على عجل دون أن يفحص الفيلم . وكانت الاستراحة قد انتهت مندمدة ، وتأخر العرض بضع دقائق . وتعالى إلينا التصفيق والضوضاء من الصالة على غير المعتاد . وسمعنا قهقهة وصفيرا عاليين ، ولم أدر لقلة تجاريبي السبب ، وحسبته بسبب تأخير العرض ، وبقيت واقفا جامدا في مكانى بين الماكينتين فصرخ عارض الفيلم خائفا :

« أوقف الماكينة ! أوقف الماكينة »

ولم أقو على تحريك عضوم من أعضائى ، فاندفع هو نفسه الى الماكينة وأوقفها . فسأله شارد الفكر : « ماذا حدث ؟ »

« ماذا حدث ؟ ! » وكان الشرر يتطاير من عينيه ، وأراد أن يصفعنى ولكنى تجنبته صفعته . هذا الفتى أراد أن يصفعنى ! كنت قد ركبت الفيلم بالمقلوب فظهر الممثلون على الشاشة على رؤوسهم وأرجلهم إلى أعلى ، ووقف رامون نافارو على أم رأسه فكان لهذا أثر لا بائس به عند المتفرجين . وعلى أية حال فقد ضحك النظارة من أعماق قلوبهم ، ولكن صاحب السينما ومعاونيه كادا يبكيان ، وجاء إلينا يسبان ويلعنان . .

وكان اليوم السادس يوم الأحد وأردت أن أستيقظ كعادتى فى الساعة

العاشرة واسكنى لم أستطع حراكا . فاستجمعت كل قوتي للنهوض فتمنذر على ذلك ودقت الساعة اثنتين ، ثلاثة وأنا لا أزال راقدا في الفراش ودقت صاحبة الدار على الباب في الساعة الرابعة لتخبرني أنى مطلوب على التليفون فنهضت في الحال .

الرسام شتين يدعوني في هذا المساء مع صديقتى الأمريكية للعشاء عنده فقبلت الدعوة لأنى كنت مصمما على عدم الذهاب في ذلك المساء إلى دار السينما .

ومررت على الأنسة ماكسونج واصطاحبتها إلى دار الفنان فقدمنا إلى بعض الشخصيات الكبيرة كما قدمنا إلى شقيقته الأديبة التى لزمتنى طول الليل تتحدث إلى فى الأدب وعرضت على أن أفكر فى وضع قصة معها عن الشرق . وفى عصر يوم الاثنين ذهبت معافى إلى السينما ، ولم يكديرانى عارض الفيلم حتى أبدى دهشته ، ورأيت فتى واقفا مكانى .

وقال لى زميلى : « ماذا تريد هنا ؟ »

« ؟؟؟؟ »

« اذهب إلى المدير فهو فى حاجة إليك ، »

فنزلات فى السلم حارًا

فسألتنى المدير . « ماذا تريد هنا ؟ »

« لا أريد شيئًا . لقد أرسلنى زميلى لمقابلتك . »

« كذا كذا ! أين كنت أمس ؟ »

« أنا ؟ كنت طول اليوم فى الدار ! »

« فى الدار ! فى الدار ! »

« نعم فى الدار . أقص عليك أحد غير ذلك ؟ »

فاحترت وجنتاه من الغضب لبلادتي : « أنت لا تزال تعيد قولك في الدار ؟
لا بد أن يكون بعقلك دخل ، لماذا لم تأت إلى هنا أمس ؟ »
« أمس كان الأحد ، وأعرف من بلدي أن العمال في أوروبا لا يعملون في
هذا اليوم »

« كذا ، كذا ، كذا ! والسيدنا تقفل أبوابها كذلك ؟ ! أتعرف أنها تقيم في هذا
اليوم بصفة خاصة ثلاث حفلات بدل حفلتين »
« حسبت أن دور السيدنا الصغيرة هي التي تفعل ذلك فقط . »
« كذا كذا ! من أي البلاد أنت ؟ »
« من أفريقيا ! »
« لسنا في حاجة لعمال افريقيا . »

وفتح دفتره وقال لي : « لقد اشتغلت عندنا خمسة أيام . هالك ١٥ ماركا
ولا ترنا وجهك . »

آه ! لو لم أكن مهدور الدم في هذه البلاد لو أن ورائي معتمدًا يدافع عني !
لو كنت ميسوراً ! لطوحت بهذه النقود في وجه هذا الرجل بل هذا القزم . لقد
أعطاني الوغد خمسة ماركات أكثر من حقي ليتخلص مني .

في مصنع الآلات الكاتبة

عدت إلى الدار كسير الخاطر محطاً . وبقيت يومين لا أفكر في عمل
استسلمت فيهما للأقدار . وفي اليوم الثالث زرت الأمريكية في المساء وتبادلت
الرأي معها فيما يجب عمله . وبقيت عند رأي أن أعالج عملاً يدويًا من جديد ،
وبقيت عند رأيها أن أبقى بالعمل الذهني ، فمذا ما تعلمته وعالجته ! وهو خير
ما أفهمه وأحسنه .

«ولسكنه يستحيل على ذلك في أوروبا . فالسوق متضخمة ، وإذا كنا نشكو زيادة الانتاج في البضائع والمحاصيل مرة ، فأنا نشكوه في الأدب والفنون مرات ، وعدا هذا فقد عاجلت حظي في هذه الناحية فلم أفلح . وإذا كنت لم أوفق كذلك في العمل اليدوي فيمدانه متسع ، وعلى أن أعالج حرفة أخرى ،

« استمع ما بدا لك ، على أية حال يمكنك الاعتماد على في كل وقت ،

وقضينا المساء معا . أكلنا وشربنا ودقت لى قطعة من بهوفن على كمانها .
واتفقنا على زيارة الهرشتين وشقيقته عصر غد للاستشارة برأيهما .

وصارحت الفنان وأخته بما أخفيته عنهما فقررا الجميع على أن أعالج العاملين اليدوي والذهني معا . واقترحت على الأخت أن أكتب لها بعض القصص الصغيرة على أن تهقل اغتها ، وأخذت على عاتقها أن تدور بها على الصحف وتركوا لى اختيار أية مهنة أرضاها واشتدت عزمي لهذا الحل

ولم أحتج إلى كبير عناء في التفكير في مهنتي الجديدة . فقد وقع نظري في الطريق على الآلات الكاتبة في واجهات الحوانيت ، فخطر لى أن أتعلم تصليحها وتوهمت أن هذه الصناعة من أخف الصناعات فضلا عن أنها تمت للكتابة بسبب . ولسكن كيف الوصول إلى ذلك ؟ وأخيرا فكرت في دار البريد . إلى دار البريد هذا حق ، وهناك نسخت عنوانات مصانع تصليح ماكينات الكتابة في كيناشتي . وعدت إلى الدار وكتبت لها جميعا بما معناه . أتى صفي مهري ، وأرغب في تعلم هذه الصناعة . وسألهم إذا كانت توجد لى عندهم فرصة للتطوع في مصانعهم ... الخ الخ .

وردت الأجابات المنتظرة في الأيام التالية واحدة بعد الأخرى تحمل أسفهم لسوء الحال الاقتصادية في البلاد ، ولاضطرابهم للتوفير في العمال وانقاص

ساعات العمل . فاستعطت المشروع من حسابي . وعلى غير انتظار يجيئني كتاب من مصنع أدلر أكبر مصنع الآلات السكّاتية للسيارات في أوروبا . فقلت في نفسي « طبعاً رفض » ، ولم كانت دهشة عظيمة حين قرأت فيه أن المدير العام يطلبني لزيارته .

استقبلني المدير استقبالا وديا . وعرفت من وجهه أن لديه تصميمها وأراد قبل تحقيقه أن يتحدث إليّ . فقد غمرني بأسئلته . أمتعزم مباشرة هذه الصناعة في مصر ؟ ولماذا تتعلمها ؟ وأية علاقة لها بالصحافة ؟ الخ . الخ . فأجبته أن الشرق ما زال عالقة على الغرب في هذه الصناعة وغيرها ، وأن هناك حركة وطنية فتية تعمل على استقلال البلاد في مختلف الصناعات . ولذا هبّ شبابها المثقف للتزود من الصناعات الأوروبية ، كل طبقا لرغبانه وميوله . وقد وقع اختياري على هذه الصناعة الخ . ويخيل إلي أن ما قلته قد وقع من نفسه موقعا طيباً . فقال مبتسما :

« ومن يدري ، فمن الجائز أن يأتي يوم نعمل معا . فنحن نبحث منذ زمن طويل عن سوق في الخارج لتصريف بضائعنا . فإذا شئت أعطيناك توكيلا عنا في كل بلاد الشرق . ولكن قبل كل شيء عليك أن تقدم لنا أحسدا يعرفك ، فوعدت بذلك .

بقيت مدة التعليم . فدعا اليه كبير عمال المصنع ، وقدمني له كوكيل المصنع في الشرق ، وسأله كم من الزمن يلزم لتربني على اصلاح الماكينات فقال يلزم للصبي ثلاثة أعوام كما تعلم ، أما السيد فرجل ذكي كما يبدو وأظن ستة أشهر تكفي لتدريبه . »

فأفهمه أن الإدارة يهملها أمرى ، وأمره أن يخصص لي لي عاملا فنيا على حساب المصنع لتعليمي وصديقا لأعمال التنظيف . وحددنا أول يونيو للابتداء

في العمل . واتفقت على أن تكون مدة التمرين دون مقابل . وقال لي كبير العمال عند توديعي . لا تنس أن تحضر معك معطفا أزرق أو أسير للعمل وإلا نرسلناك للابواب .

وزففت هذه البشري إلى الفنان شتين وطلبت إليه أن يصفني عند المدير . وأنها حقا لبشري ، فقد كانت فرصة ذهبية لدرس حالة العمال في المصنع عن كثب وكان قد بقي معي من النقود مائة مارك . تكفيني مع التقدير شهرا ولم يسكن لدى مورد آخر ، ومع ذلك لم أفكر لحظة واحدة في وسيلة للحصول على مال يسكفني ولو لمدة التمرين .

وذهبت إلى محل العمل فقدمني كبير العمال إلى رفاقي العمال ، ودار معي دورة في المصنع ، أريني غرفه المختلفة ، وليوضح لي أسرار هذه غرفة البنزين لغسل آلات الكتابة ، وقد صُفح بابها ، وعمل بحيث يقفل من نفسه اتقاء لخطر البنزين . والتدخين بالطبع ممنوع هنا قطعيا . ولن تحتاج لاستخدامها ، لأن الصبي سيقوم عنك بذلك ، وهذا مخزن الماكينات القديمة . وإذا خف العمل عندنا شغلنا عمالنا في تصليحها وما رأيك في هذه الآلات العتيقة ، انها تصبح جديدة بعد التصليح ، وهذه غرفة بها قطع تغير الماكينات ، ونحن نبيع منها أيضا . وأخيرا وصلنا صالة هائلة منيرة بمسودة فيها موائد مستطيلة يجلس إليها العمال ، وهذه هي الورشة

وأشار كبير العمال إلى أحد الكراسي وقال لي : هذا مكانك ، وهناك يجلس العامل الذي اختارته الإدارة لتدريبي عن يميني وجلس صبي عن شمالي سألني العامل معلني : أفهم شيئا في الميكانيكا ؟ فأجبته : لا أفهم منها غير الاسم ، ولا شيء آخر غير الاسم .

فهمون على الأمر قائلا : «ستفهم» فليست بالفلام النقي الذي يحتاج إلى التدريب ثلاث سنوات . وسأبدل جهدي لتدريبك في مدة قصيرة . قل لي أنتوى أن تفتح لحسابك مصنعها في مصر ، أو ستأخذ توكيلا عن مصنعها ؟ أنا لا أحاول اكتشاف شركاءك ! ولكن ذلك من باب ... أنتدري أن الحال إذا لم تتغير عندها قريبا ، فسيتعلق هذا المصنع وغيره أبوابه وسيسرح العمال في الطرقات . ولقد أنقضت ساعات العمل إلى ست ساعات ، ولا يدري أحد كم من الزمن يطيق العمال ذلك ؟ رحلة إلى مصر لا بأس بها ... »

فالتزمت الصمت أزاء هذه المجاملة الرقيقة . وأخذ يرشدني إلى العمل فأحضر ما كينة بها الخلال ، فحاولت الكتابة عليها ، فوجدت أن الحروف الكبيرة ترتفع عن السطر كثيرا عند النق عليها كما تنخفض الحروف المادية عنه . ولم أعرف علة ذلك . وكانت تعليقاتي لهذا الخلل تشير الضحك

وفي النهاية قال لي : « أحب أن ألقك عدة قواعد ذهبية ، أولاها عليك أن تتأكد قبل كل شيء من تثبيت المسامير جميعها في أماكنها . فإذا لم تعمل بعد ذلك فأبحث عن الخلل في ناحية أخرى » .

وأعطاني (مفكاً) فعالجت المسامير فوجدت بالفعل مساميرا غير مثبتة في مكانه وبعد تثبيته ضربت على الحروف فلم أجد عيبا في الكتابة .

فقال ضاحكا : « شيء بسيط لا يكلف أكثر من عشرة ماركات . لا داعي للطمع حتى تبقى محبوسين عند زبائننا . لقد كانت الأنسة صاحبة هذه الماكينة في حالة يأس . وقد أظهرت معها شهامة فوعدها بتصليحها اليوم » .

ثم أحضر ما كينة ثانية ، وطلب إلى أن أستخرج مساميرها دون أن أعرض لأجزائها ، وأن أعيده المسامير مكانها ، على أن أرجع إليه كلاما وجيدت صحوية .

فقلت : « آية صموبة في هذا ! ما أهون هذه العملية ! ليس في هذا أي فن . »
واستخرجت المسامير في فترة قصيرة ، ولستكني لم أستطع إعادة مسبار
واحد مكانه : فرجعت إليه مائة مرة « أين يوضع هذا ؟ ما مكان ذلك ؟ »
وانقضت ثلاث ساعات ولم أنته من هذه العملية .

وفي الساعة الحادية عشرة وقف العمل . وأخرج العمال من حقائبهم طعام
الفطور . ومر صبي بورقة في يده على كل واحد منا يسأله عما يرغب شراؤه من
(بوفيه) العمال ليحضره له . وكنت جائعا فتمنيت لو أحضر لي بعض المقائق ،
ولستكني كنت شديد الحرص على نقودي . وكان العمال شغوفين برؤية مسا
سأوصي به ، وأدهشهم أني لم أطلب شيئا . والتفوا حوالى يستفسرون عن عوائد
مصر الغربية « أو تستطيع الصبر دون غذاء من الصباح المبكر حتى الظهر ؟ »
« طبعاً فنحن لانأكل في مصر غير ثلاث وجبات في اليوم . »

« غريب هذا ! مصر ليست لنا . فنحن لابد لنا في الصباح المبكر من القهوة
وقطعة خبز مع الزبد ، على أن نتناول الفطور في الساعة الحادية عشرة والغذاء
في الساعة الواحدة ونتناول بعد ذلك وجبتين في دورنا ! » .

وضحك الجميع . وهنا جاء إلى كبير العمال خصيصا وقال لي . « إن في
استطاعتك أن تشتري ما تشاء من بوفيه الموظفين ، فنحن لانعمالك هنا كعامل ،
فهذا يقتضى رقتة ومبالغته في العناية بي . واضطرت إلى طالب فنجان من
القهوة . كلفني هذا الفنجان كثيرا . - كلفني وجبة الغذاء في ذلك اليوم . وارتعدت
فرائسي في فترة الظهر . فقد دار د الصبي بورقة علينا وكذلك وأدهشهم أني لم
أتناول شيئا ، واحتججت بعاداتنا . »

وفي تمام الساعة الثانية أغلق المصنع أبوابه . وسرسي عنى العمل كثيرا .
ووقفت في طريقى إلى الدار أمام كل نافذة جانوت بها آلة كاتبة معجبا وناقدا

كما يفعل الغنيون فيما لهم به علم .

وسألني الصبي في اليوم التالي أي حضرة لي فنجانا من القهوة أو كوبا من البيرة
فقلت له : « أنى لا أستلذ القهوة الألمانية ، والبيرة حرام عند المسلمين وأنا
مسلم : ، فأخذوا يتهامسون فيما بينهم وسمعت صديقا يقول الآخر : « هذا الرجل
مفرط في الفنى واسكنه بخيل . انه غنى قدر ككل الأغنياء : ماذا عليه أن يمنحنا
شيئا إذا صدق قوله ؟ » .

ولا عتب عليهم ، فماذا عساهم يفعلون من أمرى ، وما داموا يقدمون لي
خدمات ، فلم لا ينتظرون منى شيئا في مقابلها ، فضلا عن ذلك فإن حالتهم كانت
من السوء بمكان . آه لو علموا حقيقة حالى ا وكم من مرة هممت أن أقول لهم
الحقيقة ، واسكنى خشيت أن يصل شئ منها إلى أذن المدير فيفصلنى . وقد تتغير
نفوس هؤلاء الناس نحوى بعض الشئ كذلك ، إذا ما وقفوا على الحقيقة فإن
للهاة التى تحيط بالثروة سحرا على بسطاء العقول . وعلى ذلك ترددت بين قول
الحق وبين تحمل احتقارهم وآثرت الأخير فى سبيل تحقيق غايتى .

وانتصف شهر يونيو أو كاد ، وضاع كذلك نصف ثروتى فلم يبق معى غير
خمسین ماركا ، فبدأت أفكر فى الحظ القريب الذى سأواجهه . فجلست إلى
ما كينتى ، وكتبت أربع قصص قصيرة وحملتها إلى شقيقة الهرشتين ، فأعجبت بها
جدًّا الإعجاب ونسخت منها عدة صور ، وبعثت بها إلى عدد من الصحف . وفى
خمسون أسبوع أعادتها إلينا إدارات الجرائد غير مقرومة مع جواب مطبوع
يأسفون فيه لرفضها . وانفردت جريدة فوسشا أكبر صحف ألمانيا اليومية أو قل
العالم ، التى تهتم بالأدب بكتابة كتاب رقيق لى تقول فيه : انها معجبة بهذه
القصص ، وانه نظرا لوفرة المواد عندها ستكتب لى مرة أخرى عند ما يحين
نشرها . فعدد أصدقائى هذا فوزا وشرفا عظيمين . . ولم تحل الكتابة مشكلتى
هذه المرة كذلك .

أعملت الفسكّر طويلاً فلم أهتمد لحل ، ولم يبق لدى ما أبيعهُ أو أرهضهُ غير ما كينتي على الرغم من حاجتي إليها كحاجة الصانع إلى أدوات عمله . وكنت قد اشتريتها من مصر قبل سفرى ببضع أيام بما يساوى ٣٠٠ مارك . فعملتها إلى إحدى دور الرهن فى شارع فيتنبرج فأبى صاحب المحل أن يعطينى عليها أكثر من ٦٠ ماركاً . فترددت فى رهنها ولما أظف الشهر على الانصرام تخرجت حالى وبدأ على الاضطراب فسألتنى الأمريكية فى إحدى الأمسيات فى أدب ورقة عن ظروفى المالية فصارحتها إلى مزّمع على يسع ما كينتى ، فقالت هذا يستحيل لشدة حاجتك لها خصوصاً بعد أن أفسحت الصحف لك صدرها . وعرضت على مساعدتها لخامس أو سادس مرة وشددت ، وشددت فى الرفض ، قالت : أنا فى حاجة إلى ما كينة وسأشتري ما كينتك ما دمت مصمماً على بيعها بمائتى مارك ، ولك أن تستعملها مدة إقامتى فى برلين . . . ورضيت هذا الحل بعد تردد . . .

وانقضى يونيو وتبعه يوليو . وفى منتصف شهر أغسطس أو بعد انتصافه بيوم أو يومين جاءنى كتاب من جريدة فوسشباتقول فيه أن قصصى ستُنشر تباعاً ابتداء من يوم الأحد . ثم بعثت لى بالأعداد ومعها تحويل على البريد بثلاثمائة مارك فأنفقت منها خمسين ماركاً فى ليلة واحدة ، وأهديت أصدقائى بما قيمته مائة مارك وبقي معى مائة وخمسون ماركاً من التحويل .

وكان شهر أغسطس على وشك الانصرام ، ووجدتني لم أتقدم ولا خطوة واحدة فى المصنع ، وأن معلوماتي فى الميكانيكا لم تزد شيئاً عن يوم دخولى المصنع ، وتأكدت من قلة استعدادي للعمل اليدوى فانقطعت عن الذهاب ، ولم أعلن المدير كذلك ، ولا عملت حساباً للمستقبل . واستولى على شعور عدم الاكتراث . وحننت إلى مهنتى الأدب ولو ألصق أنفى بالتراب . . .

عند السيدة زور

أبرق معهد بوسطن الأنسة ماكسونج أن تغادر ألمانيا في غضون شهر
سبتمبر ، والا اضطر إلى الاستغناء عنها . فعرضت على أن تنهى أمر المعهد
وتبقى معي ولو كلفها ذلك مستقبلها بل حياتها ، فصرقتهما عن رأيها في رقة وأدب ،
وأبيت إلا أن أتحمّل نصيبي وحدي ، وبقيت على الرغم من ذلك طول الشهر
مترددة في أمر السفر

وفي آخر يوم في الشهر غادرت الأنسة ماكسونج براين باكية إلى باريس
بعد أن أعادت إليّ ما كينة الكتابة التي ابتاعها مني هدية منها .

وتنبهت حواسي فجأة ، وحُببت إليّ الحياة فأحسست وحدة تشوبها نشوة
دونها نشوة الظفر . فتمر أمام عيني صور عظام الرجال الذين جاعوا وشردوا
منذ عرف الإنسان تاريخ الإنسانية فأنفض عن رداء الاستهتار وعدم الاكتراث
وأراني أترنح في ثيابي عجباً بنفسى وكبرياء . فأنهض من مكاني وقد صممت على أن أعيش
مهما كلفني ذلك

ولم أعجب لهذه الظاهرة فطبيعتي طبيعة نائرة يزيد بها التحدي صلابة وقوة
ويؤجج فيها نار الحياة ، كما أن العكس يهضعف فيها روح المقاومة ويلين من
حدتها إلى حد الاستسلام والضعف

فقررت في الحال الانتقال إلى غرفة أرخص ، ومعالجة الكتابة والاختلاط
بالناس فأندرت صاحبة الدار بالأخلاء في منتصف أكتوبر ودرت أبحث لي
عن غرفة جديدة فحُبت منطقة نيرنبرج حتى شارع بيلو صاعداً في سلم ونازلاً
في سلم . وبقيت أياماً وأنا أجد في البحث عن غرفة مناسبة فلا أجد ، وأخيراً

قرأت في لوحة الأهلانات في شارع نيرنبورج هن غرفة بمشرين داركا .
فبدأ لي هذا عجيبا .

دققت الجرس ففتحت لي الباب سيدة في الأربعين
« أرجو معذرة الاستطبع أن أرى الفرقة الممثلة الايجار ؟ »
« وما صناعتكم ؟ »
« صحفي »

« كذا ، أنت صحفي . لقد سكن عندي في غرفة المطبخ الشاعر جورج
جورج لعلك تعرفه لقد ألف وكتب كثيرا . ومع ذلك فلم يستطع دفع
الايجار في الأيام الأخيرة . يظهر أن سوق الأدب كاسدة في هذه الأيام .
لقد كان عندي رضىا مرضيا . وإذا كنت صحفيا فأغلب الظن أنك لا تستطيع
أن تدفع أجرا غاليا . وربما وافقتك غرفة المطبخ . »

وأحييت أن أقتني آثار هذا الشاعر العظيم ، فقادتنى المرأة إلى غرفة المطبخ
وأثاثها يتألف من رف فوق الفرن وأريكة في إحدى الزوايا وكرسی من
الخيزران ، ومائدة للمطبخ ، وحنفية ماء .
« أشكرك ، سأفكر . »

ونزلت في السلم غارقا في بحار أفكارى . أى زمن نحن الآن فيه ؟ هل انقلبت البشرية
حيوانا ضاريا ؟ أو لعلمنا فقدت الإدراك ؟ إذ كيف يعامل شاعر كبير كجورج
جورج هذه المعاملة القاسية ؟ يا لله في سمائه اما أمر كل هذا أذكر أنى قرأت له
شعرا عن الفاقة ولا أراى أنساه أبدا مع ضعف ذاكرتى ، وكيف أنساه وقد نحت على
ظهر قلبى لأول مرة قراءته . آه لو كان هذا الشاعر موجودا فى زمن الرشيد وأنشده
أبياته لما حلى صدره بالناشين المصنوعة من الصفح أو الفضة كماهى الحال فى كل الدنيا

الآن ، وانغمرة بالبدرات وأتخذه بالجوارى والنياق ، وأجرى عليه وعلى عائلته
رزقا طول الحياة . رحم الله العرب ! لم يكونوا يعرفون النياشين التى لا يستطيع
صاحبها أن يستبدلها بوجبة من الطعام . والتى لا تخرس صاحبة الدار فى آخر
الشهر إذا ما استحق السكراء ، فقدماء العرب كانوا رجال أعمال .

وصلت الى شارع ايزرناخ والأفكار تتجاذبنى من كل النواحي . هناك وقع
نظري على اعلان عن غرفة بخمسة وعشرين ماركا فى شارع نولندورف عند
السيدة زور ، وزور بالالمانية معناه مر أو حامض ، فقصدتها .

وشارع نولندورف موحش عتيق ، بيوته عليها غبرة ، بحثت عن نمرة
الدار . ودخلت فى دهليز مظلم ، ودققت الجرس ، ففتحت لي الباب عجوز شماء
هى فراو زور عيناها ، ووقفت أمامي فى الدهليز المظلم منتصبة القامة
قلت : لها ، صباح الخير - جئت من أجل الغرفة .

ادخل ! ، وكان صوتها أجش أشبه بصوت الرجال ، وأضادت النور فى
وضع النهار لأن الدار كانت مظلمة . يحد الداخل دورة المياه على يمين الباب
وبجانبها الغرفة التى تريد تأجيرها . ومن الظلم أن يطلق اسم غرفة عليها . وإذا
كان لا بد من تسميتها بذلك . فلا بد لنا على الأقل من اضافة اسم صاحبة
الدار اليها . غرفة زور

حسبك من وصفها أن بها نافذة صغيرة تطل على فناء محاط بالدور ، بها
سرير محطى ، ومكتب عتيق للكتابة وتناول الطعام ، وأريكة لم أكتشف سرها
إلا فيما بعد . إذا جلس عليها شخصان ارتفع أحدهما وانخفض الآخر فكأنما
تربع الأول فوق قمة جبل وجلس الآخر تحته فى واد . ضيقة رطبة ، لا يطبقها
رجل عصبي مثلى تعود أن يذرع غرفته مئات المرات .

فقلت لها : « حسننا أيتها السيدة زور ؟ أفطن أنى سأأخذ هذه الغرفة . هل لك طلبات أخرى غير الأجرة ؟ »
فقلت مطأطئة رأسها : « هذه أشياء تافهة . »
« أنا دقيق وأحب أن أعرف حتى توافقه الأشياء ، »
« فلنقل ثلاث ماركات للنور وعشرون فنجا فى اليوم للقهوة . »
« لا أرى ثلاث ماركات بالشئ الكثير من أجل النور . لأن الغرفة مظلمة بالشار ، ولست ماذنى أنا ؟ أما القهوة فليست فى حاجة لها ، »
فقلت مضجعة : « لا عيب فى الغرفة . السيد فارنر الساكن السابق كان راضيا عنها ، وقد دفع فيها ثلاثين ماركا ، »

« ربما كان غنيا : إذا شئت أن تعطىها لى نظير ٢٥ ماركا دون زيادة على أن تقدمى لى فى كل صباح ماء ساخنا للشاي فأنا موافق على استئجارها . »
وبعد لآى رضيت وهى تقول : « ان أجد أفضل من الهرفارنر لقد كان كريما ، أما أنت فيظهر أنك مقتر بخيل . » وانفقنا على أن انتقل إلى غرفتى الجديدة فى منتصف الشهر .
وتعرفت فى الأسبوع الأول من هذا الشهر بشاب سوري يدرس الطب دعانى لزيارة الجمعية العربية التى كان وكيلها ، فزرتها وتعرفت برئيسها المرحوم الحاج شلبي ، وكان قى يتقدم وطنية وغيرة على البلاد الشرقية وطالب إلى أن أخطب الأعضاء عن مصر ففعلت .

وكتبت بعض قصص قصيرة . وسلمتها لاخت الهرفارنر فبعت بها إلى جريدة فوسشما كذلك ، وأخطرتها بعنوانى الجديد .
وفى ١٥ أكتوبر انتقلت إلى مسكنى الجديد عند فراو زور . أستغفر الله بل إلى قبر لا أظن أحدا سكنه قبلى ولا بعدى وضيق على نفسى كل التضيق

وأخذت أعضاها ليستقبل نشر نيت خبزها وأداما كالجن ومحفوظات الملب وغيرها
خوفها على نفاذ الثقود منى . ولم كنت أنمى لو كنت جملا لأخزن هذا الطعام فى
جوفى حرصا عليه من التلف . وبقيت أجلس فيها طول النهار . أغسل ملابسى
وأشربها وأصلحها ، أقرأ قطعة من هذا الكتاب وأضعه جانبا ثم أتناول آخر
أقرأ منه قطعة وأطرحه ناحية . حتى إذا جن الليل أخرج إلى المتنزهات العامة
لأترى قبيلا ولأشم الهواء . وأثر جو الغرفة فى نفسى فأنقضت عن الناس
جميعا وقاطعتهم حتى كنت أخرق القوانين وأعرض نفسى للعقاب . فالقانون
يقضى عند الألمان على الساكن عند انتقاله من مسكن إلى مسكن أن يعلن دائرة
البوليس التى كان يسكن فيها كما عليه كذلك أن يعلن دائرة البوليس التى يسكن
فيها وذلك كله كتابيا على طاب مطبوع لهذا الغرض حتى يسهل معرفة كل
شخص فى ألمانيا . فأهملت عملى التقييد هاتين عشرة أيام حتى لا يمتدى إلى
أحد من معارفى .

ولما كانت المدة المحددة فى ذلك الوقت لأخطار البوليس يجب أن لا تزيد
على أربعة عشر يوما وألا تعرض الساكن وصاحب المسكن للعقاب أخذت
صاحبة الدار تلح على كل يوم فى استيفاء هذه الإجراءات فكنت أعدها وأسوف
وصاحبة الدار « فراوزور » امرأة ثرثرة ككل العجائز . قد حط عليها
الدهر بكله فى هذا العمر . ولم يبق لها من حطام الدنيا غير مسكنها الذى
اضطرت إلى تأجيره لتستعين على تكاليف الحياة الثقيلة . جاءت إلى بعد أن
يئست منى وبعد أن تسرب إلى نفسها الشك فى أمرى ودقت على الباب فى الصباح
المبكر وكنت لا أزال راقدا فى فراشى فنهضت لا أستقبالها وكانت الدموع
تمهر من عينيها انهمارا فظننت فى الأمر شيئا فأخذت أطيب نواظرها وسألتها
عما حدث . فقالت فى ذلة وانكسار « يا بنى لا تؤاخذه إن حالتك مريبة وأنا

خائفة منك ، ، منى أنا ؟ ، فقالت وصوتها يتهدج بالبكاء ، نعم منك أنت . أنت
تجلمس طول النهار في غرفتك لا تزور ولا تزار ولا تؤدى عملاً ثم تسرح بالليل
وتماطل في تقييد اسمك في دائرة الشرطة .

، أسرح بالليل وأماطل ما هذا الكلام أيها السيدة ؟ .

، نعم تسرح بالليل وأغلب الظن أنك عذرت عنى عن أختين البوايس ارحم
أيها الرجل ضعفى وعجزى فأنا امرأة عجوز مسكينة وقد كنت فى صباهى فى نعمة
ورغد من العيش وقد اضطرت فى هذه السن إلى تأجير غرفتى حتى لا أنسول فلا
تجوز على كما جار على الزمن وأنا لم أعرف دائرة الشرطة فى حياتى ولا أذكر انى
أصأت لأحد . بارك الله لك فى الأجرة التى دفعتهالى خذها ثانية وغادر منزلى ،
وأخذت أشفق وأنشج ولولا أنى تماسكت نفسى هذه الساعة لقصيت
عليها بلطمة واحدة . فقد آذنتى فى شرفى وعزتى فى وقت كنت أحسن فيه
بظلم العالم كله لى

فسمحت كتفها بيدي وقالت لها بمازحاة انى حكم عليك الزمان بعد عز
فقد حكم على كذا لك بعد عز ، فمن فى البلوى سواء . ما أحق الواحد منا بعطف
أخيه . وأقسم لك أنى لست بمجرم وما مسألة التقييد إلا مجرد إهمال سألتافاه
اليوم ودعيتى حتى آخر الشهر ولك بعد ذلك الخيار فى إبقائى أو إخراجى ،
فخرجت تسمع عينيها وتتم بكلام لا أفهمه

فى جامعة برلين

وارتديت ملابسى وغادرت غرفتى وأخذت أنسكع فى الطريق ، ثم درت
عدة دورات فى منزله هناك قريب حتى كانت الساعة التاسعة وتصدت صاحبة

الدار القديمة لتوقع لي طالب الأخلاء ، فما وقع بهرهما على حتى صرخت في
« أين أنت ؟ لقد قلبنا عليك برلين رأسا على عقب وسألنا إدارة الشرطة عن
عنوانك الجديد فلم نقف لك على أثر . » فوجئت لمفاجآت هذا الصباح . وقات
في نفسي ترى قد أثار مساسكي شكوك الناس في ؟ ألسنت حراً في أن أسالك مع
نفسى كما أحب وأختار ؟ إن هؤلاء الأوغاد يظنونني مجرماً .

والتفت إلى محدثي وقلت لها : « ماذا حدث أنالم أرتكب جرماً أيتها السيدة »
فقلت « خذ مكانك » ووضعت يدها على آلة التليفون لحسبتها تطالب إدارة
الشرطة فلم أفرع لحركتها ولم يكن عدم فزعى عن شجاعة أو إحساس بالبراءة
ولسكنه إحساس آخر ، إحساس عدم الاكثراث . واستوى السجن عندي
والحرية كما تعادلت عندي البراءة والاثام . وتكلمت السيدة طويلاً على التليفون .
ولم أفهم منها شيئاً لأنى لم أحاول أن أفهم منها شيئاً . وقامت إلى عملها ورجتني
أن أبقى مكانى فبقيت . وهل كان فى الإمكان غير هذا ؟ .

وبعد قليل دق جرس الباب ودخل زائر لم أتعرفه إلا بعد أن سلم على وهز
يدى سائلاً عن صحتى وعائياً على عدم زيارته وجرتى معه قائلاً « أسرع أسرع .
فليس فى الوقت متسع . أين كنت مختبئاً طول هذا الشهر . فتذكرت أنه رئيس
الجمعية العربية الذى تعرفت به منذ بضعة أسابيع فتبعته دون أن أسأله إلى أين
وتمتعت . » صباح غنى بالمفاجآت ، فنادى سيارة وركب وركبت معه . ووقفت
السيارة بنا أمام جامعة برلين وأرسل بطاقته لعميد كلية اللغات الشرقية . وسمح
لنا بالدخول . واستقبلنا رجل ملتصق نحيل الجسم أصفر الوجه يشع الذكاء من
عينيه أحسن استقبال . وقسدمنى رفيق إليه فزاد فى تلمظفه وأمر لنا
بالقهوة والسجائر .

فتمتعت قليلاً من حالة الجمود التى استولت على . وكلما أفقت قليلاً من

هذه الحالة زادت دهشتي وفضولي بما يجري حوالى ولاسكنى لم أحاول كشف شيء .
وقلت فلا أدع الرواية تمثل حتى النهاية .

ومضت فترة صمت قصيرة ثم بدأ العميد يتكلم من جديد ولاسكنى باللغة العربية الفصحى موجهها كلامه إلى : « لقد تشرفت ياسيدى الأستاذ . . أين كنت محتبثاً طول هذه المدة ؟ » فقاطعت به شيء من السخرية « شرف الله قدر سيدى العميد كنت معتزلاً الناس لأستريح منهم ولأريحهم منى » فاستأنف الحديث . « أنا أعرف اسمك منذ زمن بعيد ، وكتابك كذا المترجم عن الانجليزية فى مكتبتي وأظن أنى قرأت لك شيئاً فى الصحف العربية . أنت بدون شك الأديب الذى كتب عنه المؤرخ الألمانى هانز كون فى كتابه - الاستعمار والشرق - ، وصمت قليلاً ثم قال . « لعلك تعرف الدكتور (و) المصرى . لقد كان استاذاً عندنا للغة العربية وقد سافر إلى مصر فلبجأنا إلى رئيس الجمعية العربية لترشيح استاذ بدل الدكتور . فذكر لنا اسمك ، وكنت أعرفه فرجوته أن يسكن واسطه تعارف بيننا والآن أحب أن أسألك ما إذا كان وقتك الثمين يسمح بإعطاء بضعة دروس فى العربية لطلابنا . ونسكون سعداء جداً لو تفضات وقبات ،

استاذ للغة العربية ا وقتى الثمين ! ماهذا العبث كله ؟ أحلم أنا ؟ أبى جنة ؟ أم أنا محموم ؟ لا ، لا هذا ولا ذاك . هذان الرجلان القاسيان متآمران على ، يهزآن من ضعفى . ثارت ثائرتى وصممت على تحديهما ولاسكنى مايسكون . وأجبتة أنا بدورى « هذا شيء بسيط ووقتى الثمين يسمح لى بذلك ، فشكرنى وسأل متى أستطيع البدء فى العمل . قلت اليوم وأنبتت نفسى أنى لم أقل الساعة فقال : « حسناً إذاً إلى الساعة السابعة مساء ، وحدد لى الأجر وودعنا إلى السلم . فهزنى رئيس الجمعية العربية من كبتى متمللاً وأخذ يمدى بين يديه وقال : « مبروك ، عدة مرات واستأذن منى .

وكانت الساعة الحادية عشرة ووقفت بجانب سور الجامعة الخاني وأخذت
أستعرض حوادث هذا الصباح وأحسست رأسي يظلي . وقلت فيم العودة إلى
غرفتي وليس فيها ما يسر أو يسلي وبخفت دموع فراو زور وتمهيدات ورأيت
أن أبقى في هذه المنطقة حتى الموعد المضروب لأتحقق أني في بقطة وأن عقلي
لا مساس به ودرت أسمع هنا وهناك وأقول بصوت عال : أستاذ اللغة العربية
في جامعة برلين لقب لا بأس به . هل يسمح وقتك الثمين ؟ وأضحك ضحكات
جنونية مسموعة . وأخذ مني التعب مأخذه ففكرت في أن أجلس في حديقة
الجامعة هنيئة وعدت فنهزت نفسي كيف يليق لأستاذ اللغة العربية أن يجلس في
طريق تلامذته واستحثت الوقت ولكنه لم يشفق بي واعتصمت بالصبر مرات
وأخذت مجلسي على مقعد قريب ولم أذق طعاما ولا شرابا في يومى حرصا على
القليل من المال الذي كنت أملكه ، وشددت القبعة على رأسي حتى أخنى وجهي
عن تلامذتي . وأخيرا جاء الموعد ودخلت مدرسة اللغات الشرقية متاثلا في
مشيتي لا عن تعب ولكن عن تصنع فقادني أحدهم إلى غرفة التدريس ووجدت
نفسى بين السبورة وبين الطلبة فكدت أفزع نفسي وأصيح : أيها الناس است
مدرسا ولم أكن في حياتي مدرسا ، ماذا تريدون بي ، ولكنى استجمعت قواى
مرة أخرى ودرت دورة بين الصفوف . وتناولات من أمام الطلبة كراسة بعد
الأخرى وأخذت أقلب فيها . وأخذت ففكرة عن معلوماتهم وعما يتعلمون
وعدت إلى مكاني وابتدأت في التدريس وكأن وحيانا نزل على من السماء أو فيضنا
إلهيا . فانطلقت ألقى درسي بلباقة وتسلسل وبدون توقف حتى آخر الساعة
ولاحظت علامة السرور والأعجاب مطبوعة على الوجوه فسلمت وأردت
الانصراف فاستوقفني أحد السامعين وهنأني بأهم المدرسة وقدم لى نفسه ،

الدكتور « ن » زميل مستشرق نرويجي وبدرّس العربية كذلك وقال فيما قاله أن
الإدارة أرسلته ليكتب تقريره عنى ولكنه سيحضر حصتي بدون انقطاع
للاستفادة . وقد برّ بوعده طول مدة عملي . وأخذت طريقى إلى فراو زورنشتا
كأن لم يكن بى شىء من آثار التعب وشرعت أدندن طول الطريق وقلت أرخ
يا ولد هذا التاريخ السعيد فى حياتك ففيه قد ضمنت لأول مرة رزقا ثابتا .

واستبشرت بغرفة فراو زور فلم أشأ تغييرها طول مدة عملي فى الجامعة .
وتعلق بى الطلبة ، وأدنيتم منى ، ورفعت إدارة الجامعة عدد حصصى من أربع
حصص فى الأسبوع إلى اثنين وعشرين حصّة وفتحت لى الصحف
والمجلات أبوابها .

وحدث الانقلاب النازى المشهور فلم أحس به وزاد دخلى على نفقاتى
فاقتصدت شيئا منه وفى أواخر ابريل من عام ١٩٣٣ فوجئت بفصلى دون إبداء
الأسباب ، ودون تعويض . وحاولت أن أعرف السبب فعبثا حاولت وكتبت
لهتلر أكثر من كتاب وجاءتنى ردود منه ، واتصلت بوزارتى الخارجية الألمانية
والمعارف مما سأفصله بعد ، وهكذا عدت مرة أخرى للتشرد ، وهكذا كلما
بسم الدهر لى مرة عبس لى مرات ، وكلما ذلت صعوبة تعثرت فى صعوبات . . .

سخرية القدر

برلين فى مايو سنة ١٩٣٣

..... واشتد تبرمى بالناس فقاطعت الغريب منهم والقريب ولم أكتب
لأحد ولم يكتب لى أحد . وآنست حياة الوحدة . وجاءتنى ذات يوم فى عزلى
هذه بطاقة ، عبثا حاولت معرفة خط كاتبها . وكما كانت دهشتى عظيمة عند ما
وقفت على محتوياتها . السيدة الدكتورة برجهان عضوة عصابة توثيق العلاقات

بين ألمانيا والشرق ترجوني أن أتناول الشاي عندها عصر يوم الخميس المقبل .
تريد استعادة كتاب لها عندي وأن تستشيرني في أمر يهمها .

« حقا لقد نسيت أن أعيد اليها كتابها « بركة الأرض » ومن من الناس في
سكانى لا ينسى ا ووجدت من السخرية أن تسألني النصيحة ا نصيحة من لا رأى
له ، من هو نفسه في حاجة الى نصيحة ، وهممت أن أعتذر عن قبول دعوتها
وأبعث لها بكتابها بالبريد ولكنى تذكرت في آخر لحظة حكاية صديقي س .
الذى تخصص في طب الجراحة وعين مديرا لاحدى المصالح . وذكرت حكايات
كثيرة تماثل هذه الحكاية كان فيها النجاح مؤكدا كلما ابتعد الانسان عن
المهنة التى تخصص فيها .

وعلى ذلك قررت أنا المشرد عضو جماعة المؤمنين بالعجائب أن أقدم النصيحة
اللازمة للسيدة الدكتوروة عضوة شرف كذا وكذا من الجمعيات العلمية ، وألا
أجبن وأعتذر بل أزورها في قبة وجرة

وأهّلت بي كعادتها وجلسنا على مائدة الشاي تتجاذب أطراف الحديث
وكنيت أنتظر في قلق ما تريد معرفته منى . وفيجأة أدعشتنى بسؤالها « أتعرف
ابنتى الفريدا ؟ »

فأجبتها معتذرا : « معذرة ياسيدتى ، لا ، لم أتشرف بعد بمعرفتها ! » فقصت على أنها
تعمل في إدارة شركة فيلم « أوف » وأن الشريط المقبل سيعمل في مصر وأن ابنتها
راغبة في انتهاز هذه الفرصة لزيارة أم المدنيات وباعثة الحضارة في العالم . وهى
تجيد عدة لغات ولا ينقصها إلا العربية . وأخيرا سألتنى رأيت عما إذا كان من
الضرورى أن تتعلم العربية في حالة ما إذا كانت ستقيم طويلا في مصر فأجبتها
متهربا ومظهرا قليلا من الاكتراث أن من الممكن أن تعرف شيئا من اللغة

فى الأربعة الأشهر الباقية على سفرها إلى مصر ولو أنى أرى أن تعلم اللغة العربية فى بلد دولى كمصر غير ضرورى ، واتفقنا على أن أفكر فى إعطائها دروسا شخصية .

ولم أفكر بعد ذلك فى الأمر حتى طلبت يوما على التليفون فاذا الآنسة الدكتور برجان تدعونى إليها لتناول الشاى عصر اليوم وأردفت سؤالاها : « طبعاً إذا سمح وقتك ، فقلت بدون تفكير : أنا شاكر لك دعوتك ، وليس لدى اليوم ما يمنعنى من قبولها . »

وعذلت نفسى لقبولى هذه الدعوة . أليس لدى من مهمى ما يكفينى وهل أنا فى حالتى الراهنة كفء لأعطاء دروس ؟ وملايسى ؟ سروال يلمع كالمرآة ورباط رقيقة أشبه بحبل بال . مجرد السير بها فى السبل يسبب لى آلاما جسيمة . ترى لماذا قبلت هذه الزيارة ؟

وقادتنى الأم والابنة إلى بهو أعد فيه الشاى ، وأخذت مجلسى بين الأم والابنة وجرت بيننا الأحاديث العادية ، ولكنى لا أدرى أكانت أجابانى تتفق مع أسئلتهما أم لا تتفق ؟ كنت أحرق فى صحفى مشرد الفكر . وكنت أعود إلى صوابى فى كل مرة أرفع فيها رأسى فأنقبه إلى أنى جالس بين سيدتين لهما حقوق على . فقد كان رأسى فارغا حتى أنى لم أعر حضور الفتاة أى التفات . ولو أنى رأيتها فى الطريق بعد ذلك لما عرفتها . ووافقت على اقتراحهما آليا ، وذلك أن أعطى الآنسة ثلاثة دروس فى العربية فى الأسبوع . وأعطيتها اسم كتاب لتثريه على أن نبدأ الدرس الأول غدا .

وانقضى شهر كنت أذهب فيه إليها فى الموعد المضروب وانسل إلى الشوارع بعد انتهاء الدرس . ولم تترك فى نفسى أثرا ما ، فلم أكن فى حالة تسمح

لى بالتفكير فيها فقد كانت الأفكار متناثرة فى رأى ، ولا هم لى إلا التفكير
فى إيجاد حل لى من الورطة التى كنت واقعا فيها .

وسألتنى يوما بعد انتهاء الدرس : «أتحب الموسيقى ؟» ولما أجبتها نعم ،
دعتنى أن أهود فى المساء لتضرب لى ما أحب وأختار ، وحدث أن عدت فى
مساء اليوم نفسه . وبعد أن تناولنا العشاء انتقلنا إلى غرفة الموسيقى . وعزفت على
البيانو قطعا من باخ وبيتهوفن ووقفت وراءها أقارب لها صفحات النوتة فأثار
سحر لعبها فى نفسى شعورا قديما كان منسيا منذ زمن أو مكبونا ، فنبهت فى
صورا جميلة وذكريات طيبة . واختفت فجأة من أمام ناظرى سلتنا التشرذ ، وعادت
إلى مشاعرى .

أخذت لأول مرة أرقب الفتاة الموسيقية باهتمام فرأيت لها رأساً دقيقاً
كأنما هو من صنع نحات ماهر عقدت عليه شعرها الأشقر وبدأ لى كأن انعكاس
شعرها الذهبى يذوب مع نغمات الموسيقى ، وانتهى التوقيع واسكن هذه الصورة
الجديدة وهذه الاحساسات لم تمح . ملأت «الفريدا» قلبى شكرا فـسكان لزاماً
على أن أحدثها عن تأثير ضربها البديع فى نفسى وكيف أنه أسعدنى
فأجابت : هذا ممكن . أنا أجيد الضرب واسكننا الآن فى حاجة إلى تعاطى
بعض المرطبات .

وكان الوقت متأخرا عند انصرافى . والعجيب أن سرورى قد طار فجأة
وأنا فى الطريق إلى الدار ، وأحسست اختناقاً فى حلقى واضطرت أن أصارع
من أجل الهواء . وتغلب على قلق مجهول ودخلت غرفتى وحاولت أن أعيد إلى
توازنى بالقراءة فتناولت كتاباً بعد الآخر وعبثاً حاولت . كانت الحروف
ترقص امام عيني . ولم أكن لأعنى شيئاً ، واتقد رأسى وكأن حلقى قد شدد بحبل

فنهضت واقفا واتسكأت على الحائط ، وكان قلبي يدق بشدة ففتحت النافذة حتى لا أختنق وذرعت الغرفة جيفة وذووبا ولكن شيئا من هذا لم يخفف عني فقلت في نفسي : « لا بد أن أكون مريضا . ولم أعد أطيق غرفتي ساعة حتى ولا دقيقة واحدة . إلى الخارج ويستوى عندي أى مكان .

جريت من الدار مسرعا إلى ميدان بوتسدام وضايقتني الناس الذين كانوا يمرون بي ويقابلوني ووددت أن لا أرى أحدا . وعلى ذلك اتخذت في عودتي سبلا مظلمة ودقت الساعة اثنتين ، الآن إلى الدار ؟ مستحيل فحسبت نقودي ودخلت في محل عمومي . وفي الساعة الثالثة ذهبت إلى دارى محطما منهوكا ولم يغمض لى في هذه الليلة جفن ، وتمسكنى شعور الاختناق طول الليل . وأخيرا ظهر نور النهار في الغرفة فحمدت الله أن أصبح الصباح فأسرعت بارتداء الملابس وأخذت أنجول عن غير قصد ساعات طويلة في « التيرجارتن » وكلم ووددت لو عرفت ما بى . أو كنت مريضا ؟ طبعى أنى كنت أحس بالضعف لسوء التغذية ، ومع ذلك فقد بقيت طول الوقت معافى . أو لعلى فقدت صوابى ؟ ولكن شيئا جديدا من التغيرات فى حالتى لم يحدث ، فلم أجن فجأة ؟ وكان الهواء نقيا كما كانت أوراق الشجر تهتز فى الريح ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان فوق صدرى حمل يعير من الهم والأسى حتى كان يتعذر على التنفس وكنت كمن بعث من الموت فكان على أن أكافح من أجل الحياة .

وفي الساعة العاشرة قررت العودة لأن الدرس كان يبتدىء فى منتصف الثانية عشرة . وقلبت هذه المرة فى كراستها فأدهشنى خلوه من الغلطات فلم تنس الآنسة الدكتور حرفا ولا نقطة .

فقلت لها عند ما أعدتها إليها . « حقا انك لموهوبة أيتها الآنسة الدكتورة »

فأسرعت بالجواب :

« ان استمدادى ليس فى الدرس فقط . أنا مهتمة بـ » مبدعة ولو فهمنى
الجيل الحاضر لشنقت نفسى وسأكتب كتابا لن يفهمه الناس إلا بعد مائة سنة »
فصمت فى قلبى الممزق . أية امرأة هذه التى أمضى ؟ أهذورة مدعية أم
ذات مطامع ؟ أو ترى هى انسانة ذات مواهب غير عادية تحسها ؟ ألم تبرهن
على ذلك كفايتها وعملها ، ولكن لو صدق ذلك فإنى لا أوافق على طريقة
مدحها لنفسها .

فقطعت على تأملاتى : « سيدى المعلم » لقد وعدتني فى الدرس الفائت
أن تعطينى جملا لا أكملها ، وهأنذا قد حفظت درس الصفة (الخبر) فما
رأبك فيه اليوم ؟ » .

« حسنا تفضلنى وأكملنى : البنت ... »

وبأسرع من البرق أجابت : « موهوبة جدا جدا جدا ،

« هاتى صفة أخرى ! ، البنت ... »

قالت ضاحكة . « يظهر أن الجواب الأول لم يرق عندك وأحب أن أرضيك
وعليه البنت قميحة جدا اها ، ها ، ها ! »

صمت مرة أخرى ، ما أعجب هذه المرأة . ثم استأنفت الدرس :
« للرجل ... »

فأكملت الجملة وقد احمرت وجنتاها « أسنان جميلة »

« هاتى جوابا آخر » . « ويد رفيعة » وزادت بذلك احمرارا على احمرارها .

وعلى هذا النحو انقضت الساعة . ولما نهضنا من السكراى قالت لى ضاحكة
« انك لتعب معى جدا » .

واستعدت الحديث كله في طريقى إلى الدار وسألت نفسي : ه أحقها انها جميلة وموهوبة ؟ جميلة ، جميلة ؟ حتى أستطيع الحكم عليها ، يجب أولاً أن أدرس تقاسم وجهها وقدها وحركاتها تمام الدرس . وعلى أيضا أن أقرأ لها شيئاً وأن أتناقش معها ، ولكن لماذا أشغل نفسي بها فجأة ؟ لتسكن حسناؤه أو لتكن قبيحة ، موهوبة أو غير موهوبة ، ماذا يهمنى ؟ ان لدى أهم من ذلك لأفكر فيه ، وما معنى هذا القلق ولماذا أرانى مضطراً للسير فى الطرقات أشير بيدي كالو كنت أريد إقناع بعض الناس .

وهكذا انصرم اليوم . هى حسناء موهوبة . هى قبيحة جدا وغير موهوبة . هذه بداية مرض شديد . وحسبت أن الوحدة ، واحتباسى بين أربع حيطان يوما بعد يوم والاهتمام بالحصول على رزقى اليومى مما أنضجنى للنزول ضيفاً على دار المجانين . وحتى أصرف نفسى عما أنا فيه قررت أن أختلط بالناس ، ولكن بمن أختلط فقد كنت فقيراً كذلك فى هذه الناحية ؟

ولم أكدم أخذ مجلسى فى غرفتى حتى سرحت فى عالم الأحلام ، فشغلت الفتاة رأسى وظل شغلها يتصاعد ويتزايد حتى رأيتها رأى العين تجلس بجانبى وكانت جالسة كعادتها إلى يمينى كما يجلس الطفل المجتهد المؤدب ، وتمنيت أن أمس رأسها وأمسح بيدي على شعرها ، وغالبت هذا الشوق فغلبنى فرفعت يدي بالفعل فتنبهت غاضباً من شدة الألم ، فقد اصطدمت بالكروى الخشب . أنا أجلس وحدى فى غرفتى الموحشة الميئسة فضحككت :

فعدت أتمشى قلقاً فى غرفتى حتى أنهكنى التعب فرقدت مستيقظاً وبعد بضع دقائق غرقت فى حلم اليقظة وسمعت هذه المرة صوتها ، سمعت توقيعاتها لبتهموفن

وسمعتها تدعوني إليها لأقلب لها صفحات « الثوتة » فوثبت مسرعاً من رقتني
فاصطدمت بالمغسل ففركت عيني ، ونظرت في المرأة ، فرأيت وجهها أحمر
قد بلله العرق :

الآن وضح لي كل شيء . أنا محجوم لا أعجب ، فقلة التغذية ورداتها قد أضعفت
في جسمي قوة المقاومة فأخذت حبة من الكينا ودخلت في سريري فنمت
وتيفظت ونمت وربما تكرر ذلك مائة مرة في هذه الليلة : وفي كل مرة كنت
أنازع نفسي وأتنازع معها في جمال الفتاة وقبحها ؟ أسألم ناره ، وأرفض أخرى
ثم أقمقه من نفسي

وقلت في نفسي : « لماذا لا تأخذ هذه النعجة على درسا كل يوم بدل ثلاث
مرات في الأسبوع ؟ هي تهصر على تعلم العربية ، وكلانا لديه متسع من الوقت .
وبين الدرس والدرس وقت طويل » :

الخطوبة

برلين في مايو سنة ١٩٣٣ ...

وكم كان يحز في كبدي أني عاجز عن دعوة الأنسة إلى ، لأرد لها يدا من
أيادها على . فقد كنت أتناول عندها الشاي ثلاث مرات في الأسبوع فضلاعن
دعوتها لي من وقت لآخر لمشاركتها في طعام العشاء ، أو الغداء . ولم تسمح لي
ظروفي القاسية باستزارتها . وليس في الأمر سر فيدي كانت خاوا من المال
وغرفتي كانت ضيقة ومؤثثة بأحقر الأثاث لذلك قررت اشباعا لهذه الرغبة
الملحة في نفسي أن أدخر من طعامي بالتدريج خمسة ماركات (ما يقرب من ٢٥
قرشا) لأتمكن من دعوتها في أحد المقاهي .

ولما ذهبت إليها في موعد الدرس فتحت لي « الفريدا » الباب وهي تبسم

ولكنى لم أقصد كعادتي إلى غرفة المكتب بل بقيت مكاني واقفا في الباب أراقب الفتاة وأحرق فيها من رأسها إلى قدمها وكانت ترتدى ثوبا بسيطا أزرق ذا أكام طوال يتناسب في بساطته مع بساطتها وتميزت لون عينيها لأول مرة فقد كانتا خضراوين يشعان سحرا وذكاء ، أعجبنى في « الفريدا » كل شيء .

فقلت في ارتباك ، وهي تلتفت إلى متسائلة : « أعجبنى ثوبك كثيرا أنا أحب كل شيء بسيط » .

فضحكت قائلة : « ولكنك رأيت علي هذا الثوب أكثر من مرة ، لقد صنعتته بنفسى طبقا لتصميم وضعته أنا . واست وحدك الذي يعجب بذوقى . » وعادت تضحك ضحكات الإعجاب بالنفس السخيفة .

وحسبت أنى محموم ، فلم أكن أعنى بعد ما أقول ، ورأيت أن أكبح جماح نفسى بل ألجمها حذر أن يصدر منى سخف أو هراء فمن يدرى ؟ .

وجلست جامدا كالمسمر على كرسى فلم ألتفت يمينا ولا شمالا ولا سألت عن شيء ، وكانت إجاباتى قصيرة ومقتضبة وفى كل مرة كنت أحس فيها بضعف أو كفافح ضده بكل ما فى من قوة ولم يكن ذلك بالسهل على . وخفت الهزيمة فأخرجت ساعتى من جيبى فظهر أن ساعة الدرس قد انقضت فاعتذرت وهممت بالانصراف .

فقالت وكأن رجاءها قد طاش . « ابق قليلا . ألم تنم الليلة جيدا ؟ »

فتمتمت : « نعمت ملء عيني ، أشكرك ! »

وانقضى على أسبوعان فى قلق وكفافح ولم أستطع فيهما أن أتبين حقيقة مشاهزى وفى كل مرة كنت أذهب إليها للدرس أصمم على دعوتها فكانت تخوننى شجاعتي وأخيرا لقيتها يوما مرححة مسرورة معتدلة المزاج فتجرات على

سؤالا عما إذا كانت تتمفضل بقبول دعوتي لها في أحد المقاهي لتناول الشاي معي

فأجابت على نفس لم ترده : « بكل سرور » فلمحدد الوقت الآن ، وليكن في الساعة الخامسة عند الساعة القائمة في ميدان « فتر فلد » فسكنت أجن من فرط الفرح وهرولت إلى الدار لأعد نفسي الموعد المضروب . وقفت أمام المرأة أتفقد ملابسى قطعة قطعة ، وسويتها بقدر المستطاع ورجوت صاحبة الدار أن تسكوى لى رباط الرقبة ، وغيرت ياقتي مرتين . ثم أردت أن أطمئن على وجود القطعة الفضية الثمينة ذات الخمسة المركبات التى اقتصدها من طعامى منذ أسبوع فوضعت يدى فى جيبى - فلم أجد شيئا ! تفقدت جيوب السترة والسروال بعد جيوب الصدر - فلم أجد شيئا ! قلبت جيوبى مرات ظهرا لبطن فلم أجد شيئا ! بحثت فى أوراقى ، بحثت تحت الأرائك ووراء المساند ، فلم أجد شيئا . أعدت البحث والتنقيب فلم أجد أثرا لكنزى الذى ادخرته لهذا اليوم باللاسكبة ! سرقت ! سرقنى الأوغاد ! يا صاحبة الدار ! أيها الجيران ! ليس من المروءة فى شىء سرقة رجل فى مثل حالى ! جريت من الدار يائسا غاضبا أسب وألن ، راجيا أن أجد نصيحة أو مساعدة عند بعض الأصدقاء ، ولكن أحدا منهم لم يكن مستعدا لأقراضى شيئا وضايقونى جميعا بأسئلتهم . « أعندك خادم فى الدار ؟ هل يدخل أطفال فى غرفتك ؟ هل بحثت فى ملابسك الأخرى ؟ ،

آه لو لم أكن قد دعوت الفتاة لم يبق أمامى إلا طريق واحد للخلاص من هذه الورطة . ولما هدأت أعصابى بعض الشىء كتبت لها كتابا اعتذرت لها فيه عن عدم مقدرتى على الحضور فى الموعد المضروب لأمر هام طرأ على - ورأيت أن أرسله بالبريد المستعجل ليقع فى يدها فى الوقت المناسب وسحبت محفظة نقودى (1) من جيبى لأخذ طابع بريد وما أمسكتها بيدي حتى أحسست شيئا

بجامدا يتحرك تحت أصابعي هنا وهناك فقبضت عليه ماشوفا . وفتحتها فإذا
بالقطعة الفضية ذات الخمسة الماركات وقد الفت بعناية ودقة في ورقة بيضاء
نظيفة وكانت من المسكوك حديثا فكاد وهجها يلمف بصري .

لم يكن هذا شحا مني ، فوالله ما عرفت يدي القبض في الغنى أو الفقر ،
ولكنه الحرص على الكرامة فقد كنت أذوب خجلا كلما فكرت في عجزى عن
رد جميل الأنسة بأجل منه .

وقبل الموعد بعشرين دقيقة كنت واقفاً عند الساعة . وبدأت هذه الدقائق
العشرون دهرأ . ولستكنها عند ما هلت أخيراً ، لم أكده أتعرفها إلا عن قرب ،
ذلك لأنى لم أرها قبل ذلك فى معطف وقبعة . أقبلت على مسرعة فى خطوات
ثقيلة فلم يكن فى خطواتها شيء من دلال الأوثة وشبهت لى حركاتها فى أقل من
لمح البصر بحركات الراهبات .

واختارنا « حلوانياً » قريباً ، وجلسنا هناك وحيدنا فى زاوية شاخرة وبقينا
مدة طويلة من الزمن صامتين ، وأخيراً رأيت أن أحطم حصن الصمت الذى
تحصنا فيه عن غير قصد ، فشرعت أحدثها عن مصر ، عن متاحفها وآثارها .
عن نيلها وأهراماتها ، عن سماتها وشمسها ، ثرثرت كثيراً ، ويعلم الله ماذا قلت
وعرجت فى حديثى على السحر وعلم الفراسة وقراءة الخط . وهذا حديث
طريف يحسد السحر فيه دائماً بحالا للأخذ والرد ولم تكن رغبتى بعد أن تغلبت
على جو الصمت الذى لزمنا فترة طويلة إلا أن أسمع صوت « الفريدا » وأن
أحدق فى عينيها الخلوتين وأن آخذ يدها بين يدي ، ولو سألتنى نظير ذلك
نصيبى من الفردوس من حدائق وقصور وحور عين وغلمان عما لم تره عين ولم
تسمع به أذن لتنازلت لها عن كل ذلك عن طيبة خاطر ، ولستكن كيف السبيل

إلى ذلك ؟ وحذرتُ ذلك في نهرائي وفي نظراتي فسألتني مبتسمة : « كهرى لا بد وأنك تجيد قراءة الكف ؟ » .

فقلت في تودة العلماء المعتزين بعلمهم طامعا في هذه الفرصة الفريدة : « طبعاً لقد درست هذا العلم سنين طويلة . ومع كل ذلك فأنا لا أصدقـه إلا إلى حد محدود »

صمت . . وانتظرت أن تمد لي يدها . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث فكان على أن أستجمع قواي لخطوة أخرى .

« لو أنك لاحظت يدي الشمال مثلاً ، رأيت هذا الخط الأفقي يمتد تحت أصبع البنصر ، وهذا ما يسمونه خط الشهرة ، وهذا الخط الذي يمتد . . »

فقاطعتني . « خط الشهرة ؟ » واتسعت حدقتها وأسرعت تنظر إلى يدي ثم نظرت إلى يدها . فرجوتها أن تعطيني يدها لأرى الخطوط بنفسى ، ووعدتها أن أشرح لها كل شيء . ومددت يدي فدافعت عن نفسها : « لا ، لا ، قل لي شيئاً عن الخطوط وارسمها لي وأنا أرى بنفسى ما كتب على » .

فقلت متهمكاً : « ولكن النظريات وحدها لا تكفى أيتها الآنسة الدكتورة ففي كل يد توجد تعرجات دقيقة ، ولا يمكن التفريق بينها وبين بعضها إلا بعد دراسات طويلة ، ولو صحت نظريتك لكان في استطاعة كل واحد أن يشتري كتاباً في الطالع أو الحقوق ويكتفي بقراءتهما ويصبح بعد ذلك طبيباً أو حقوقياً » .

« دعني الآن من علم الكف ، أنا لا أصدق إلا في علم تفسير الخطوط وعلم الفراسة .

« حسناً ! استخدمى علم فراستك وقولى لي شيئاً عنى ! »

« ذو إرادة حديدية » ثم توقفت ، ثم استأنفت الكلام قائلة : « ألا يكيفيك هذا ؟ »

« لا ، هذا لا يكفيني وما قلته لا يثبت عليا »

« لحظة سأطالع عليك بعلي ، أنت في كفاح مع نفسك وهذا ينم عنه وجهك
وهوئك ونظراتك وحركاتك واسكنك لا تحب أن تسلم بذلك لأنك رجل قوى »
« كفاح ؟ كنا في كفاح مع أنفسنا . لا ، ليس هذا والله يعلم »

فقال بصوت خافت : « لعلك تحب زوجك في مصر » وتنالم لفراقها
« آسف ليست لي زوجة لا في مصر ولا في المانيا » وعلى ذلك صمتنا مدة
طويلة ، وكانت في غضون ذلك تسارق يدها النظر من وقت لآخر

ثم سألت فجأة : « قل لي ، لماذا هذا الخط قصير ومتقطع في يدي ؟ »
« هذا مهم جداً . أريه » وأمسكت يدها . آه ، لم يعد يكفيني أن أمسك
يدها أنا أطمع ان أقبلها

فغمغمت تقول وقد حذرت ما في نفسي : « ليس في المقهى »
إذن فلنسرع من هنا ، وإلا فسأظل قلقا .

وحدث أن مالت على بدون أن ترفع عينيهما إلى : « أظن أننا نستطيع
أن نعمل معا في الحياة » نحن نتفق في كثير من الأخلاق والمواهب ألا
تظن ذلك ؟ »

« وفقرى ! وحظي في الحياة الذي قضى على أن أضرب في الأرض شريدا
طريدا ، ولم يترك لي طريقا من الرجاء في المستقبل ! الواقع أني سأكون عائقا
في سبيل تحقيق مطامعك ، تدبري الأمر يا سيدتي . بودى ! وبودى أيضا أن
لا أجنى عليك ! »

فقال بصوت ثابت صادر من القرارة : « لقد تدبرته ،
وافترقنا في نفس اليوم مخطوبين . وودعتها إلى دارها بعد أن قبلت يدها
قبلة ما زالت حلاوتها في فمي

بين الفصول

برلين في يونيو سنة ١٩٣٣

نسيت أن أذكر أني طلبت الى « الفريدا » أن تؤجل إعلان خطوبتنا أياما حتى أتدر الموقف وأسيطر عليه ، فوافقت على رأيي ووعدتني ما طلبت منها . ولما حان موعد الدرس التالي ذهبت إلى تلميذتي وخطيبتى فلقينتهما متلهة مشرقة ، ودخلنا إلى غرفة الدرس كالعادة ولكننا لم نملك هذه المرة كتابا أو كراسة وبعبارة أدق لم تتلق منذ ذلك اليوم درسا في العربية ، وكانت تقول في دلال إذا سئلت عن مدى تقدمها في اللغة . لم تعد لي حاجة لتعلم العربية فانا أملك ابنا من أبنائها البررة . جلسنا بجانب بعضنا ، يبت الواحدهما الآخر حبه وآماله تارة وطورا يعتب عليه شيئا لم يعجبه منه فيما مضى . فعتبت على برودي وجهودي في أثناء الدرس ، وأن برودي قد انغص عليها بعض الساعات فسكانت تشور في غيبتى وتصمم على مغاضبتى ، ولكنها كانت تضعف عند ما أجلس منها مجلس المعلم . وسألتني عن يوم كذا ، وذكرتي بموقف كذا ، وتكلمنا عن حياتنا المستقبلية وطريقة تنظيمها . وأرتني لها رسائل كتبتها عن مصر قبل أن تعرفني وأنها كانت حلها على الدوام ، فارتعدت فرائصي وقلت لها « ولكني لم أعد مصريا والرجاء في رجوعي إلى مصر مقطوع » وغلب على الآسى فطأطأت رأسي في ذلة وانكسار فحالت على كإتميل الأم على ولدها ومسحت رأسي بيدها وقالت : « تراني آلمت بك ؟ وماذا تهمني مصر مادمت معي ؟ وهل كنت أطمع أن أنال من مصر ما نلته اليوم . أنا سعيدة بك ، سعيدة جدا ، لا تتجهم ، عد وابسم . . . » وكنت حريصا على مواعيد الدرس فلما جاء الوقت : « أستطيع أن أراك اليوم مرة أخرى ؟ » قالت « نعم » وفتحت الباب الفاصل بيننا وبين غرفة أمها

قَبيل أن تقول لي كيف أقابلها وكانت العجوز في الانتظار فقرأتها السلام فردته بصوت المذبوح وقالت : « أريد أن أتحدث معك وحدك » ففهممت أن الواقعة قد وقعت وأن « الفريدا » لأمر ما قد باحت لها بسرنا ، فتهيأت للنضال ، وأشارت العجوز إلى كرسي قريب منها فأخذت تجلس عليه ، وانتظرت لأسمع منها ، وظالت صامته فترة طويلة فازدادت رهبة الموقف ، ثم قالت لي ولم ترفع عينيهما إليّ « لقد حدثتني الفريدا بما دار بينكما ، نحن لا نعرفك . ومن تكون أنت ؟ »

وكان السماء قد هبطت على الأرض ، حسبت كرامتي قد مست . وتغلب على « مركب النقص » فاحمى حب « الفريدا » في لحظة واحدة وأردت أن أثار اعزتي ولو كلفني ذلك رأسى ، لا . بل حتى ولو فقدت « الفريدا » إلى الأبد ، فقلت لها بدون تفكير وعلى نفس لم أشهقه : « أيتها السيدة الدكتور لو قلت لك أنا فلان ، كنت فيما مضى كيت وكيت ، فما صنعت شيئا لأن ما فات مات وإذا قلت لك سأكون كيت وكيت فدعوى يستطيع أن يدعيها كل انسان . واسكني إذا كنت مخلصا فعلى أن أقول لك من أنا اليوم ، الآن . » وهنا علا صوتي . « أنا الآن صفر ، فهل ليكما أن تقبلاني على حالى هذا ، صفر الاشياء !! »

صمتت العجوز صمت الحيرة لا التفكير . أخذت . وكأنها رغم تجاربيها وعلمها لم تسكن تتوقع هذا التحدى . فتخيلت أنى انتصرت عليها ، والظافر لا يشفق على غلبة المغلوب . بل يزيد الظفر جبروتا على جبروته فقطعت عليها صمتها « لم يحدث بيني وبين ابنتك غير وعد برىء هي في حل من فكاك الساعة » فاهتز جسم العجوز ومدت إلى يدها مرتعشة « اليك يدي » رضينا بك على ما أنت عليه وإن نسأل عنك أحدا ، وتقبل بركتي ، ولدى ، لا تحمل لي ضغنا في صدرك لما بدر مني ، أنا أحب وحيدتي الى حد العبادة ، وليس لي في الدنيا

غيرها، وكنت أجهلك، والآن، الآن فقط عرفتك - وإني لفخورة بك . وسأقوم
من الساعة بإعلان خطوبتك لأفراد العائلة . لا تذهب أبقي معنا ففرحى لا يقدر .»
وجاءت « الفريدا » فقبلنا بعضنا لأول مرة فى السر والعلانية

عاد القدر الساخر للعبوب فبسم لى وأمدنى بقوة لا يستهان بها، فقد أهبطت
أحب وأحب، وكنت سعيدا فى حى، نفورا بعروسى كبير الرجاء فى المستقبل
فقد خلعت على « الفريدا » حياة جديدة . تبخرت هموى مرة واحدة، فنسيت
معها شقوتى وآلامى وعادنى المرح والتفاؤل ولم يبق امامى إلا السكفاح من
أجل العيش وهذا ليس بالجديد على وأنا أقوى عليه الآن من ذى قبل . فقد
كسبت رفقة بجاني يمكننى الاعتماد عليها . ولم أكن فى حاجة للتفكير فيها
عسأى أن أبدأ به، فقد كنت فسكت فى كتابة كتاب وبدأت العمل فيه

بالعمل من اليوم التالى

أيها الناس أنا قوى، أنا أقوى من عرفتم . أيها المحبون أنا سعيد . أنا أسعد
من أحب ! هكذا كنت أحس .

« نعم كلانا معدم، ولكن هذا ان يكون عائقا فى سبيل حبنا، فانت
كفو مثلى . وأنا واثقة أن لا بد وأن يكون لنا شأن . » هذه كانت كلمات
« الفريدا » الأخيرة قبل خطوبتنا . وقد أثرت فى كرقية السحر . وتجدد الرجاء
فى نفسى، فسكنت أصحو كل يوم مبكرا فأجاس إلى مكتبى لأعد مادة أملكها
فيما بعد على خطيبتى لتتقلما على الآلة الكاتبة وهكذا قضيت شهورا طويلة - لا بل
ما أقصرها - فى انتاج مستمر

كننا نلتقى فى الضحى فى دارها فنمكتب معا حتى الظهر ونفترق على أن نلتقى
عصرا فنقرأ ساعتين ثم نخرج للرياضة ونعود إلى دارها أو دار أحد أقاربها
فنقضى سهرة ممتعة فقد كان بينهما بيت علم وفضل وقد شاع أمر الخطوبة ولها

أعمام وعمات وأخوال وخالات منتشرين في برلين وخارج برلين ، وكان على كل واحد منهم أو واحدة ان تؤدب مادية بل مآدب وأن تقدم لنا الهدايا كل على قدر طاقته

وأحسست يوماً من الايام بشيء من التعب . وكان الجو ، على غير عادته في هذا الشهر ، فاتراً . ولم تقو ساقاي على حملي إلى المطعم الذي تعودت الأكل فيه ، ورأيت مطعماً صغيراً فدخلته . وكنت دهشتي عظيمة حين وجدت الأثمان فيه رخيصة مع جودة طعامه . فقد أكلت فيه بشية لم أعرفها منذ زمن طويل . ولما أردت الانصرف وقع نظري على لوحة مكتوب عليها : « الاشتراك في عشر وجبات خمسة ماركات بدل ست » أي حظ موات هذا ! اقتصاد مارك مع ضمان الغذاء ، عشرة ايام . فأسرعت بشراء دفتر اشتراك وتسليمته ووضعته في جيبتي وانصرفت .

وقصدت المطعم في اليوم التالي ، وأردت ان أستوثق من دفتر الاشتراك في الطريق فوجدته ، وقلبت فيه لأول مرة فإذا به مكتوب فيه «البقشيش وقدره خمسة فنجات - أي نصف قرش - يدفع عند كل وجبة - وكنت خيبتني عظيمة عندما اتضح لي أني لا أملك إلا أربعة فنجات ! ! سخريه من مسأخر القضاء ، أملك عشر وجبات ولا أستطيع أن أحصل على واحدة منها لأنه ينقضي فنج واحد ! ! وكنت أفضل لو أعدت دفتر الاشتراك في الحال إلى صاحبه ولو خسرت نصف قيمته ، ولكن شيئاً من هذا لم يكن في الاستطاعة . ففكرت طويلاً فذكرت أن لدى طابع بريد للخارج قيمته ٢٥ فنجا فذهبت إلى دار البريد وقصدت شاباً كالم يكن واقفاً عليه أحد : « معذرة هل في الاستطاعة أن تستبدل لي هذا الطابع بنقود فأنا في حاجة إليها » فتغيرت ملامح الموظف . وعبر عما كان يخالجه من مرارة لا أدري سببها قال : « الطوابع المباعة لا يعاد بيعها إلينا » .

فاحسست الدم يثب إلى رأسي من الخجل وعدت جائعا إلى دارى لا أوى
على شيء . وفي عصر ذلك اليوم قصدت كما دتى « الفريدا » وكنت ضيق الصدر
حرجسه ، فقالت لى : « يخيل لى أنك تعب بعض الشيء . دعنا نسترح اليوم فلا
نقرأ شيئا . سأقص عليك ما صنعتته فى فترة غيابك ، وتقص على بدورك
ما صنعتته فى فترة غيابي عنك .

فأجبته : « لك ماترين . هات ما عندك ا »

فنهضت من جوارى باسمه وفتحت خزانة ، وأخذت منها صندوقة حديدية
صغيرة فى يدها ، وسألتنى أن أحذر ما فيها .

فقلت : « وكيف لى أن أعرف ما فيها ؟ لعل بها إبراً وخيطاً ا »

فعبست ثم ضحكت : « وهل أنا امرأة لإبرة وخيط ؟ ! أو تحتاج إلى امرأة
من هذا النوع لتخيط لك جواربك ؟ أنت تعلم أنى امرأة موهوبة ، موهوبة
جدا جدا جدا . هل لم تدرك هذا بعد ؟ أو تراك نادما ؟ » .

فعالجت أن أصالح ما أفسدت : « أيتها الحبيبة ، إنما اخترتك لمواهبك ،
وهل بين معارفك من ينازع فى ذلك ؟ أما مسألة الخيط والإبرة فلم يكن إلا
دعابة ، ومؤكد أن بالصندوقة ريش كتابة من الذهب الخالص » .

ولم تعر مزاحى التفاتا ودست يدها فى الصندوقة وأخرجتها مطبقة على شيء .
ثم فتحتها فتساقط على أرض الغرفة قطع نحاسية من فئة الفنج الواحد فانتثرت
فى كل مكان ، فوثبت من مكانى عن غير وعى كالمدوغ وأخذت أحقق شدوها
فى هذه الفنجات ، ثم أضحك ضحكات السخرية والاستهتار حتى أفرغنى ضحكى .
قالت « الفريدا » : « فتحت الصندوقة اليوم لمجرد المزاح ، وأحب أن
أنخلص اليوم من هذا النحاس ، وأخذت تلعب بأصابعها فى كومة النقود .
خمد كل شيء فى رأسي ، ولم أعد أرى إلا الفنجات بين أصابعها .

وسألتها متلعثما : « ما معنى هذا ؟ وأنى لك كل هذه الفنجات ؟ » .
فقلت ضاحكة : « ألا تدري أن الفتيات يجمعن هنا الفنجات ولا يمسسنها
حتى يخطبن ، دعنى من هذا السخف ومن هذه الخرافات ، انتهينا ، أنا ذاهبة
لأحضر ما كتبته فى نقيبتك لأسمعك أياه » .
ولسكن الفنج الذى . . .

واختفت الفريدا « من الغرفة » وذهبت إلى المائدة مترددا ، ووقفت جامدا
بحوار الصندوق « وأخذت أحرق فى آلاف من الفنجان مكومة ومنثورة ، ثم
أخذت حفنة فى يدي ثم تركتها تنساب من بين أصابعي ، وقلت فى نفسى لو
نقصت هذه الفنجات واحدا (أى مليا) لما شعر به إنسان ! وكيف يثير فننج
واحد حقير مثل هذا النزاع فى نفسى ! وبينما أنا فى كفاح مع نفسى ، إذا أنا
فجأة أنارل الصندوق وأمسح عليها عن غير قصد يدي وأنحنى عليها ،
وكأنى مدفوع بقوة خفية وأقبلها فى خشوع واحترام كما يقبل الحاج الحجر
الأسود . وما انتهيت من قبلى حتى دخلت « الفريدا » الغرفة .

أيتها الحبيبة ؟ حدثيني عن الفنجات . . . »

فقاطعتنى : « دعنا من حديث الفنجات السخيف ، واسمع لى ! »
وأخذت تقرأ لى ما كتبت ، ولسكنى لم أسمع شيئا ، فقد لزمتمنى الفنجات
ولم تفارقنى لحظة ، فاعنت حظى وهزأت من نفسى . أو ما كان فى استطاعتى
أن أحصل على واحد منها على سبيل المزاح أو بأية طريقة أخرى ! آه ولسكن
كبيرائى السخيفة حالت بينى وبين ذلك ، وسرعان ما وجدت حلا ومبررا
لموقفى : « أليس الحب جوعا ؟ ألا يجد الإنسان لذة فى عذاب الحب ؟ ألا يجد
المسلم متعة فى جوع الصيام ؟ فلم لا أجد أنا لذة ومتعة فيما أنا فيه من ألم ؟
وبدا لى أن هذه السفسطة قد أضعفت ثورتى ، وأن أعصابى أخذت تهدأ
شيئا فشيئا حتى استطعت أن أفهم ما تقرأه لى ، وأن أناقشها فيه .

فرقة الى الابد

برلين في صيف سنة ١٩٢٣

يا الله كم كنت مفتونا بفتاتي! فزهوها بنفسها وجرأتها على الادعاء ووعيتها غير العادى كانت مفاخر فى عيني . ولم لا أكون فخورا بها وبمواهبها ومقددراتها الخارقة ؟ كان بينها وبين الثلاثين حولان أو ثلاثة أحوال . ومع ذلك كانت فى حركاتها وسكنياتها أشبه بطفل برىء مجد . وبرر حاجتها المباشرة للراحة حقها الغريب فى كثرة النوم ، فتوسط ساعات نومها فى اليوم كان عشر ساعات على الأقل ، كانت تبذل كثيرا من ذهنها فى عملها ، فتستغيصه فى نومها ، بارك الله فى نهارها وليلها ، وأحببت بذل كل شئ فى سبيل توفير السعادة لها ، فأية قوة فى السموات أو على الأرض كان فى طاقتها أن تلئم جراحى ، وتمدنى بقوة الشباب ؟ ألم تنسى الفريدا غربتى ووحشتى وآلامى ؟ نعم ، أنا مدين لها بحياتى - ألم أصبح بها أسعد انسان على الأرض ؟ وأى إحساس عذب كنت أحسه وأنا مكب على الكتابة والتفكير من أجلها وأجلى بينا هى غارقة فى النوم ! وأى حلم حلو كنت أحلمه فى اليقظة بجوارها وبعيدا عنها ! كانت أمنية نفسى ، وما الامانى إلا أحلام اليقظة ؟

وكم من مرة ساءلت نفسى وقد كربنى الجوع وأنها كنى العمل : « ترى تدوم هذه الأيام الطيبة التى انتزعتها انتزاعا من بين أنياب الزمن الغشوم ؟ وهذا الخط العظيم ؟ ألا يفدحنى حملة يوماً ما فأنوء به ، اذ لم يكن لى عهد بمثله حتى فى أيام فتوتى وجاهى ؟ ،

ومضى على يوم لم أذق فيه طعام الغداء واسكنى لم أحس أثرا للجوع ، بل

كنت على العكس منشرح المزاج . وفي اليوم التالي جاءني نقود من « مس
ما كسونج » في أمريكا ، فاستطعت أن استخدم دفتر اشترأكي في المطعم . وذهبت
قبل الظهر كعادتي لأفريدا فقالت لي وهي ترد تحيتي : « ستبقى عندنا اليوم للغداء
معنا ، فأمرى قد دعت بعض أقاربها لتقدمك لهم » فابتسمت عن غير قصد
وذكرت مثلنا العامى الذى يقول : « إذا أسعد الله الفقير رزقه وجبتين من
الطعام فى ليلة واحدة » .

وانقضى يوم إثر يوم ، وأعقب الأسبوع أسبوع ، وتسابقت الشهور مع
الأيام والأسابيع . وكأنى بالشهور قد كتب لها الفوز فما كنا نعرف لنا يوما
ولا غدا . ولكننا كنا نسمع فقط من الذين حوالينا ، الشهر الأول أو الثانى من
الخطوبة ، وكما كان مرور الأيام يزيد كلينا تعلقا بأخيه كان مرورها كذلك
يزيدنا قلقا واضطرابا ، أما هى فكانت تتطير من الخطوبة الطويلة . وتعتقد أن
الفشل مكتوب لصاحبها فى النهاية فكانت تلج على الإسراع بالزواج ، فسكنت
أعدها وأمطل ، فتعود فتلج وتلحف ، فأحدد لها موعدا جديدا بعد أن أكون
قد هيات له أسباب النجاح والإنجاح فأفشل ، فأتحل لها الأعذار فتصبر على
مضض ، ولم يسكن لاضطرابها وقلقها من الوجهة ما لاضطرابى وقلقى ، فدائى
كان عضالا لا يصلح فيه تطبيب طبيب ، ولا مواساة كريم ، كنت مشردا
منبوذا ، لا وطن لى ، كالصيد البرى دمه حلال لكل طالب صيد ، ولا حكومة
لى . ولا سفير يحمى ظهري ، ولا قريب ولا صديق يؤازرنى ، ولا رجاء لى فى
عمل منتظم أستعين به على إعالتنا ، وشر من هذا كله أنى كنت أعلم أنى بمجرد
عقد العقد على « الفريدا » تفقد جنسيتها آليا ، وإذا رزقنا أولادا قيدوا كذلك
بلا جنسية ، و « الفريدا » عزيزة على ، بل أعز على من نفسى ، ولا أحب أن

يُسميها سوء فكيف أتسبب لها في الأذى والأسى معا ، فكنت أطلبها توضيحية
منى وإيثارها ، لعل أجدلى مخرجا .

فجددت مسعاى لدى الحكومة المصرية ، وكان وزير مصر المفوض في
برلين في ذلك الوقت ذلك الرجل الأملحى « حسن باشا نشأت » فطلبت مقابلته ،
ولم أكن رأيته من قبل . وكنت أحتفظ للرجل في نفسى بصورة مشوهة رسمتها
البروباغندا الحزبية في مصر في كثير من صدور الشباب ، فرفض سعادته
مقابلتي معتذرا . أن أعفيه من المشافهة ، وأن أبثه شكواى كتابية ، والله يسأل
أن يقدره على تخفيف بلوتى ، « فخرجت من المفوضية لاتكاد تحملنى ساقاى ،
أعثر فى أذيالى من الخجل ، ويغلى رأسى من الغضب ، وعددت اعتذار هذا
الرجل الفاضل الذى كان مجرد حياء منه لا أكثر ولا أقل إهانة
لا يغسلها غسول .

ولما بلغت دارى اجتمعت أن أضبط أعصابى ، وكتبت كتابا لأولى الأمر
في مصر وطلبت فيه إعادة النظر فى أمرى ، وقررت أنى على استعداد لتسليم
نفسى للمحاكمة إذا كان هناك ظل من الشك فى مسلكى الأدبى أو السياسى .
وبعثت به مسجلا برسم سعادة نشأت باشا . فجامنى منه بعد أيام رد تنم عبارته
عن الرقة والعطف على ، أخبرنى فيه أنه قد تلقى مظلتي وقد أرسلها إلى الجهات
المختصة مشفوعة بالتوصية اللازمة . فأعطانى هذا الجواب فى الحال صورة حقة
عنه أزال كل ماعلق بصورته من شائبة .

وأبقيت على حياء الباشا فلم أحاول مقابلته طول مدة إقامتى فى منفى حتى
زيارة النحاس باشا لبرلين عما سيأتى فى موضعه . وعلمت أن بين وزراء الدولة
المصرية وزيرا يعرفنى ويعرف عائلتى جيدا ، وكان يتوودد إلى كثير أيام
كنت فى مصر فكُتبت له أيضا كتابا خاصا رجوته أن يشير مسألتى . وبذلك

تجددت آمالي في العودة إلى أرض الوطن وبت أراني أمير مع « الفريدا » في شوارع القاهرة .

ومضت الأيام تلو الأيام ، وأثارت الصحف المصرية مسألي واسكن أحدا من رجال الوزارة لم يجرؤ أن يرد لي حقى وينصفنى . وفي غضون ذلك كانت « الفريدا » تسألنى السبر بوعسى . ويطلبنى أهلها معها بالوفاء فكاشفتهم بالعقبات ، وسألتهم مهلة بعد مهلة : وأخيرا جاءت « الفريدا » فى صباح يوم مبكر إلى دارى لأول مرة وقالت لى « إنها لم تعد تطبق صبرا على هذه الحال ، ومن ذا الذى يطبق صبرا أبنتها العزيزة ؟ ! كلانا كان يتحرق شوقا إلى صاحبه ، فقد أضنى الحب والانتظار قلوبنا . وقالت فيما قالت : إنها لا تستحق أن تكون زوجا لى إذا هى لم تشاركنى ضرائى وتتحمل معى آلامى ، وإنها يوم اختارتنى زوجا لها كانت تعلم حقيقة موفى . وعرضت على أن أصرف النظر مؤقتا عن مصر ، وأن نحاول معا الذهاب إلى أى قطر من أقطار الأرض وليكن الصين أو بلاد نيام نيام يستوى عندها الناس والمناخ . وإن نعدم وسيلة معا لسكسب قوتنا وكنت مثلها مدلها ، فلم أزد على قولى « كذا ! » قالت « نعم ! كذا كذا قم بنا الساعة إلى دور القنصليات ! »

وترددنا أسبوعا أو أكثر على القنصليات الموجودة فى براين فرفضت جميعها قبولى فعدنا إلى الأطلس ندرس بلاد الله فيه ، فوقع نظارنا على « العراق » وملاّت هناك استمارة ، وطلبوا إلى ضمنا قدره عشرة آلاف مارك ضمن فيها عمها ، وخرجنا من هناك وكلنا أمل فى قضاء شهر العسل فى عاصمة الخلفاء بغداد

وفى المساء جاءنى خطاب من القنصلية فيه أنهم أسفون لعدم السماح لى بالسفر

إلى العراق .. وجدوا اسمي في القائمة السوداء يا خيبة الرجاء ! وهكذا قضى على
آمالنا بين عشية وضحاها

وعجزت درر (الفريدا) عن إقناعي بضرورة عقد العقد فأنابت عنها لآلىء
الدموع فخطمت قلبي المحطم وزادتني خبلا على خبل ، فضقت ذرعا بكل شيء
وأصبحت عصبي المزاج إلى حد خفت منه على نفسي . وأصابها ما أصابني فعرضت
على اقتراحا جديدا . أن نغادر العاصمة إلى أحد بلاد السواحل لنقضي هناك
شهرًا نستجم فيه ؛ بحجائي هذا الشهر ، لابل يوم واحد مع الفريدا بعيدا عن الأهل
والصحاب ولمكن كيف السبيل ؟

ورأت الفتاة آية الذلة والخيرة مرسومة على وجه ذلك الرجل العاصي وأدركت
سر آلامى فقالت فى رقة ولطف .

« إن عمى الطبيب يرى رأيي ، وقد وافقت أمى على ذلك وهى مستعدة
لإقراضنا خمسمائة مارك لهذه الغاية . حقا إن أمى لطيفة القلب وأكاد أغار منك
لقد باتت تحبك أكثر منى . أى المصاييف تختار ؟ »

أنا أقترح من أم عروسى ؟ فلتسحق أعصابى وليسحق معها قلبي والله
أن الاتجار ليفضل مثل هذه الحياة ، اذهبي وحدك مصحوبة بالسلامة واكتبي
لى كل يوم ، وفكرى فى خلوتك فأنا لا أستطيع مغادرة برلين لأنى أنتظر أنباء
هامة من مصر ، وذهبت كل محاولاتها معى أدراج الرياح

ومما أوجعنى أن مرت علينا أعياد ومناسبات كان لابد فيها من تبادل الهدايا
فأهدتني خطيتى وأهدانى أهلها هدايا ثمينة تقدر بألف مارك أو تزيد ، وكانت
هداياى لالفريدا فى كل مرة هدايا حقيرة لا تزيد عن خمسة ماركات

ومع كل ذلك فكنت أرى آيات الأشرار ترسم على حياها كلما قدمت لها شيئا ،
وبرى العجز كبدى وحز فىها ، ورأيت عندها كيسا صغيرا أنيقا تعز به

فسألتها عنه فقالت هذه أوراق أول باقية من الورد أهديتها لي ، جمعت أوراقها
بعد ذبولها ، ولم أدع ورقة واحدة منها تضيع . آه « الفريدا » أين أجسد حبا
ووفاء مثل حبك ووفائك ؟

وابتدأ اليأس يدب إلى قلبها من قرب عقد العقد ؛ ولو أن لواعج الحب
ما زالت تصميمه ، فأرادت أن تبحث لها عن طريق إلى الخلاص . فلم تكتف
بما تكتبه معا ، فأخذت تشغل فراغها بكتابة تكتبه وحدها ،

وابتدأت أحقر نفسي . وكبر على أن لا أكون ذلك الرجل المهرى
القادر على توفير أسباب السعادة لزوجته ورأيت الشقة بينما تسمع يوما عن يوم ،
فأخذت أفكر أنا أيضا في طريق للخلاص فلم أجدي منجى إلا في فسخ الخطوبة
فلمحت في تاليف ورفق فامتعضت من اشارتي ، فخرجت من الابهام إلى
الايضاح فقالت ان يكون هذا . فلم يبق أمامي إلا التجنى على خطيئتي
لأكرامها على مالا بد منه

أخذت أفص من حربتها وأصدر لها الأمر تلو الأمر ، فتقبلت كل شيء
راضية . فالتمت خطة المعارضة وتسفيه كل ما تقوله ، وكنت أعلم ان هذا
السلاح أحد سلاح أنال به منها ، فعجرفتها لم أكن أجملها ولكننا تقبلت ذلك
كذلك على مضض

وكان لها صديقة من عهد الصبا تعزها كنفسها وجاء موعد ميلادها فرجتي
أن أصطحبها إلى صديقتها في ذلك اليوم ، فقلت ان أصطحبك لأنك ان تذهبي
إليها ، فظننتني أمزح ، ولما تأكدت من نيتي أظهرت دهشتها ورجت وتوسلت
وبسكت ووسطت أمها وعمها ، وهيئات أن ألين ، وبقينا من الصباح إلى المساء
في أخذ ورد ، ورأت كرامتها قد مست أمام أهلها ، فصممت على الذهاب ،

ورأى أهلك أن يضربوا لنا طريقا وسطا ، وذلك ان نسكتفى بإرسال آيات التبريك
بالتليفون ونبعث بهديتنا مع كتاب :عذر فيه . فقلت لاتفون ولا هدية ولا
اعتذار . إما الرضوخ وإما فرقة لا راجعة بعدها ؟
. وافترقنا إلا الأبد .

حزمت ه الفريدا ه أمتعتها وسافرت إلى سويسرا في نفس الليلة على أن
لا ترى براين بعد هذا اليوم ، وكان ذلك في آخر ديسمبر سنة ١٩٣٣ وقد برت .
وسقطت مريضا في الفراش شهرا

